



أحمد الفلاسفة



Bibliotheca Alexandrina
0019169

نور محمد

أحلام الفلاسفة

الفلاف للفنان جمال قطب

سلامة موسى

أحلام الفلاسفة

سلامة موسى للنشر والتوزيع
تراث من الكفاح العادف

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى ١٩٢٦

مقدمة

لكل منا حياتان ، حياة الواقع التى يعيشها الإنسان متأثرا بالوسط الزمانى والمكانى ، وحياة الخيال التى يرغب فى أن يعيشها . والفرق بين الحياتين هو الفرق بين الوجود الناقص وبين التخيل الكامل . أو بين ما هو موجود على الرغم منا وبين ما يجب أن يوجد وفق خيالنا وطبق رغباتنا .

والعقل الإنسانى مطبوع على أن يتم بخياله ما يراه ناقصا فى الحقائق الواقعة حوله . ومهما قيدنا العقل ، ومنعنا من التفكير فيما يهوى ، فإنه ينفلت منا ، ولو وقت النوم ، فبعوضنا من نقصنا الحقيقى كمالا متوهما . فمن جاع فى النهار وقت صحوه أكل فى الليل أشهى الأطعمة وقت نومه . ومن تحرق فى النهار لرؤية حبيبته رأى طيفها يتهادى فى الليل وهو مستغرق فى سباته . بل نحن نحلم فى يقظتنا ، فنستسلم للخواطر الجميلة ، لنرى القصر الفخم الذى نسكن فيه بخيالنا والجياد المطهمة تحجر عرباتنا . كما نرى الخدم والأتباع ، نخاطبهم بلهجة الرياسة ، ونحن فى فراش وثير لنا زوجة محبة وأولاد مطيعون وحدائق

غنساء ننتزعه فيها . كل هذا ، وأكثر منه ، نراه فى خيالننا لأننا نشعر بالنقص فى الحقائق الواقعة حولنا . ومن ضروب الراحة التى يلجأ إليها العقل أن يعيد التوازن فى رغبات الجسم وشهوات النفس . وهذا هو السبب فى أن الإستفراق فى الضحك يعقبه شىء من الغم . والإنغماس فى الشهوة يليها شىء من الإشمئزاز والفتور . فإذا كانت حقائق الحياة مؤلمة ، تعكس صفاء الذهن وتكده بالتدبير لملاقاة تكاليفها وآلامها ، كان من ضروب الراحة لهذا الذهن أن يعتمد إلى ما يناقض هذه الحقائق من الخيال ، فيرسم لنفسه عالماً آخر غير هذا العالم كله نعيم وسرور

فكل منا يعيش إذن فى عالين : عالم الواقع ، وهو أهدأ ناقص ، وعالم الخيال وهو أهدأ كامل ، على النحو الذى نفهم به معنى الكمال ، فإذا آلمتنا الحقيقة لجأنا إلى الحياة ، أو قل بعبارة أخرى إذا رأينا الواقع خارجنا ناقصاً مختلاً مؤلماً فررنا منه إلى الخيال داخل أذهاننا فأعتضنا من الحقيقة حلماً

وإياك واحتقار الأحلام ..

وهل تحتقر الآلهة ؟

إعتبر المصريين القدماء لما أستبدت بسواد الأمة فئة قليلة العدد من الأمراء والكهنة والأجناد ، واستحوذوا على ثروة البلاد ، ورأى أفراد هذا السواد أنهم يعيشون فى حرمان ، لا ينعمون بشىء من نعم هذه الحياة ، فعمدوا إلى خيالهم فأخترعوا عالماً آخر يعيش فيه المحرومون

المظلومون . يؤجرون أجرا حسنا علي ما قاسوه في هذا العالم وينعمون هناك بما لم يقدرُوا أن ينعموا به هنا . فكأن خيالهم قد ثار علي الحقيقة، وخرج عقلهم الباطن علي عقلهم الظاهر ، وأوجد نوعا من التوازن في حياتهم ، بحيث جعل ما توهمه من ملذات العالم الثاني بنسبة ما هو واقع من آلام هذا العالم الأول . لعلك من هنا تدرك تلك النزعة الإلهادية التي تعتري بعض الشياطين من الإشتراكيين والشيوعيين حين يقاومون الأديان ويحضون السواد علي تركها ، إذ يخشون هذا التوازن الذي يحدثه الإيمان بعالم آخر وما يعقبه من تهدة لنفس العمال ، وهم إنما يرغبون في إحداث القلق والاستعار في نفوسهم . والفيلسوف والعالم والأديب كلهم يتخيل ويحلم ، وهم أكثر خيالا وحلما إذا اضطربت أحوال المعيشة وتنافر الخيال المشتبه مع الواقع المحتتم . ونحن في كل أزمة تقع ، أو نكبة تلم بنا ، نجدنا إزاء ثلاثة حلول لنا أن نختار منها واحدا . فأما أن نفر ، كما يفعل الناسك ، يزهد في الحياة فيلجأ الي صومعته مهزولا كالأسد الجريح يذهب الي مغارته . وأما أن نكافح مدافعين ، وهذا ما يفعله معظمنا . وأما أن نهاجم ، وهذا ما يفعله الأديب أو العالم أو الفيلسوف . فهو لا يفر ، وهو أيضا لا يكتفى بالمكافحة ، وإنما يتخيل وسطاً يجعله بديلا من هذا الوسط الحقيقي ، فيهاجمه به ، ويدعو الناس إلى حلمه حتى يستبدلوا بحقائقهم خياله . ولكل إنسان مزاج خاص . ولكن أمزجة الناس متداخلة . فليس فينا من لا يفكر في القسار بعض الأحيان . ولم

تكن المهاجرة إلى امريكا إلا فرارا من اوربا . وليس فينا من لا يكافح بعض الأحيان ، بل هذا هو شأننا طول النهار . كما أنه ليس فينا من لا يتخيل ويحلم ، ولو بضع دقائق بعد الغداء ، حين يطمو العقل الظاهر وتتسلل الخواطر بلا قيد ولا شرط

والفيلسوف ، ومن إليه من المفكرين ، يخستلفون عن الكاهن المصرى القديم الذى يمثل أحلام سواد الأمة من حيث أنهم لا يجعلون ميدان حلمهم فى العالم الثانى ، فإن همومهم الذهنية مقصورة على هذا العالم . والناس على الارض ، لا الملائكة فى السماء ، هم موضوع كلامهم وخيالهم . فهم يرون من الخبط والخلط فى الهيئة الإجتماعية ، ومن الظلم والإسراف فى معاملات الناس ، ما يحثهم على اختراع نظام أوفى يضمن لهم أكمل ما يتوهمون من صور العدالة والصحة والعمار . فهم يحلمون لنا ونحن أحياء على هذه الأرض ولا يبالون بنا بعد موتنا ، لأن الحياة لا الموت هى موضوع تفكيرهم وغاية نظرهم فى الإصلاح ولا ننسى أن كل إصلاح حدث فى الماضى أو سيحدث فى المستقبل إنما هو حلم من أحلام أحد المفكرين . وقد صدق أناطول فرانس فى قوله : " لولا أحلام الفلاسفة فى الازمنة الماضية لكان الناس يعيشون إلى الآن ، كما كانوا يعيشون قديما ، عراة أشقياء فى الكهوف . لقد كان إنشاء أول مدينة خيالا من أخيلة المفكرين .. ومن الأحلام السخية ظهرت الحقائق النافعة . فالخيال هو مبدأ التقدم ، وفيه محاولة إيجاد المستقبل الحسن "

وفيما يلي قد اخصنا للقراء بعض الأحلام الشهيرة التي رآها
الفلاسفة في يقظتهم ، وتخيلوها عن روية وتدبير ، يرجون بها إصلاح
مجتمعهم ، ومنها يقف القارئ على ضرورة الإصلاح التي تخيلها
هؤلاء الفلاسفة ، وما كان من أثر الوسط في كل منهم ، وكيف كانوا
يتخيلون المدينة الفاضلة والحكومة الفاضلة وأحسن ضروب الزواج وخير
نظام للتربية وما إلى ذلك

ولا شك في أن القارئ ، وهو يتنقل من ترسيم إلى ترسيم ، ومن
برنامج إلى برنامج آخر ، سيدفعه خياله إلى أن يحلم هو أيضا حلمًا قد
يظن أنه جدير بأن يحشر بين هذه الأحلام . وسواء أكان هذا أم لم يكن
فالمؤلف قد تجرأ وحشر حلمه بينها في "طوبى" توهمها كاملة مستوفية
شروط السعادة لمن به كفاية السعادة

م . م

جمهورية افلاطون

يتسم الأدب الاغريقى بشيئين : المجازفة ، والحرية . ولهذا السبب كان الإغريق ولا يزالون للآن مبعث الوحي لكل نهضة أو تجديد فى الأدب . لأن المجدد أو الناهض لا يكون كذلك إلا إذا تخلص من القيود العديدة ، سواء أكان مصدرها الشرائع أو التقاليد . ثم هو لن يكون مجددا إلا إذا كان إحساسه بالحرية أكثر من إحساس غيره بها ، فما يعده غيره فيه مخاطرة يراها هو نفسه رياضة فكرية ليس فيها شئ من المجازفة . فإذا قرأ الإغريق ، واشرب روحهم ، صار مثلهم . يجرى على نسقهم فى حرية التفكير والجراءة فى الإستنتاج حتى تصير هذه الجراءة طبيعة فيه قد إكتسبها بالألفة مع هؤلاء الإغريق

والحق أنه من عجائب التاريخ أن تقوم نهضة أوربا فى القرن الخامس عشر على درس إناس مضى عليهم ألف عام . إذ أننا ننتظر من المجدد أن يترك القديم فى بلاء ، وينظر فى الحاضر ، ويتطلع إلى المستقبل . ولكن الإغريق على قدمهم وبلاهم لا يزال فى آثارهم —
(ولد افلاطون سنة ٤٢٧ ومات سنة ٣٤٧ ق.م)

الفكرية ما ينبه أذهاننا ويضطرنا إلى النظر فى أى موضوع نعالجه من زاوية غير تلك التى ألفناها فى البحث . وليس فى معلومات الإغريق أو معارفهم ما نحتاج إلى معرفته ، ولكن نزعة الحرية والمجازفة فى البحث هى التى نحتاج إليها فى كل نهضة أو حركة تجديدية . ومن هنا كانت الروح الإغريقية على الدوام مبعث النهضات الفكرية فى الأدب والفلسفة

ولنضرب بعض الأمثلة على جرأة الإغريق فى تفكيرهم ..
فقد كان " أرسطوطاليس " يقرر أن الآلهة على الرغم من قدرتها لا تستطيع أن تبدل النواميس الطبيعية . فكان بذلك لا يقر لها بمعجزات وكان " توكيد " بنعى على الناس زواجهم جزافا من غير انتقاء ، ويقول إننا نعنى بتأصيل الخراف والخيول أكثر مما نعنى بالإنسان . وأن كرام الناس أقل من كرام الخيل ، لأن لكل أحد من الناس الحق فى التناسل

وكان " ارسطوطاليس " أيضا يعد الجمال شرطا من شروط السعادة

وكان " افلاطون " يبحث فى شيوعية النساء
ففى مثل هذا الوسط الحر نشأ أدب نزيه ، خلو من القيود ، لا يزال إلى الآن كما قلنا يوحى إلى الكتاب والأدباء روح التفكير النزيه الحر الجرىء

ولذلك يجدر بنا أن نبحث حلم أفلاطون فى أول ما نبحث من أحلام

الفلاسفة ، لنرى أى مدينة فاضلة تخيلها لضمان سعادة الناس وراحتهم.
فإن جميع من عاجلوا هذا الموضوع بعده قد ساروا على طريق حاول هو
من قبلهم أن يعده لهم .فما من واحد منهم كتب فى " المدينة الفاضلة "
إلا وكانت " جمهورية " أفلاطون وراء ذهنه تلهمه وتجبرئه وتسدده

ولا شك فى أن المدينة الفاضلة كما توهمها " الفارابى " ترجع إلى
أفلاطون فى الإلهاء ، بل فى بعض الترسيم أيضا ، ولكن الفارابى
جرباً وراء النزعة التى كانت سائدة فى عصره إعتد على " آلهيات "
أفلاطون وبحشها وشرحها أكثر مما إعتد على ترسيم الجمهورية
الإنسانى ، حتى ليكاد يفقد الإنسان الصلة بين " المدينة الفاضلة "
للفارابى و " الجمهورية " لأفلاطون

* * *

تعلم أفلاطون وهو صبى فى إحدى مدارس أثينا ، وكان أهم ما
فى التعليم وقتئذ أن يستظهر أكبر مقدار من قصائد هوميروس وسائر
الشعراء . ثم تعلم بعد ذلك الموسيقى ، والعزف على القيثارة ، وأكب
على العلوم الرياضية فبرع فيها . وكان طوال صباه وشبابه لا يفتر عن
ممارسة الألعاب الرياضية ، وقد فاز فيها بجوائز

وكانت أول شهواته الذهنية أن يكون شاعراً ، وقد ألف درامة
شعرية للمسرح . ولكنه بتقدمه فى السن صار يهجر الشعر إلى الفلسفة ،

إلى أن التقى بسقراط ، وكان عمره عندئذ عشرين سنة ، فقر قراره على البت فى هذا الموضوع وعمد إلى جميع قصائده فأحرقها وأرصد نفسه من ذلك الوقت للفلسفة . وبقى يلزم سقراط ٦ سنوات ، ورآه وهو يتناول السم سنة ٣٩٩ ق.م . وقد ترك هذا الحادث أثرا مؤلما فى ذهنه ، فإنه توجس شراً بعد ذلك من الجماهير وحكومات الشعب

ورأى أفلاطون أن " أثينا " لم تعد ذلك المكان المأمون الذى يستطيع أن يعيش فيه ، فتركها ، وقضى بضع سنوات فى رحلة طويلة زار فيها مصر وإيطاليا ، ودرس عادات الأمم التى حول البحر المتوسط ونظمها السياسية وأديانها وانتفع بكل ذلك عندما شرع يؤلف " طوباء " أو مثله الأعلى فى كتابه " الجمهورية "

وعاد أفلاطون إلى أثينا وقد بلغ الأربعين ، فقصده إلى ضيعة صغيرة ورثها عن أبيه ، قريباً من أثينا ، فأقام فيها . وصار الشبان يهرعون إليه للتعلم على يديه . وكان يلقي أحاديثه أو محاضراته فى منزله أو فى حائش من الزيتون بالقرب من ضريح لأحد الأبطال يدعى أكاديموس . ومن هنا سميت مدرسته " أكاديمى " وهى اللفظة التى تطلق إلى الآن على الجامعات العلمية . وربما كانت الأكاديمية التى أنشأها أفلاطون أولى الجامعات فى العالم ، فقد انتظم فيها التعليم على النسق الحديث . ولم يكن أفلاطون يجزم بشيء ، وإنما يناقش ويحتكم إلى العقل وكان يفرض على جميع الطلبة أن يدرسوا الرياضيات قبل

أن يشرعوا فى درس الفلسفة

وكان أفلاطون ، لتربيته الأدبية الأولى ، ثم لشقافته العلمية الثانية ، يتكلم بلغة الأديب ويفكر تفكير العالم . ولذلك كان يستهوى الطلبة ببيانه . ولقد تخرج على يديه أرسطوطاليس وتعلم منه قيسة البيان فى الكتابة حتى الكتابة العلمية . وقد قيل فيه : لو كانت الآلهة تتكلم باللغة الإغريقية لنطقت بها كما ينطق أفلاطون

وكان العصر ، بين سنة ٦٠٠ وبين سنة ٣٠٠ قبل الميلاد ، عصر بناء المدن فى بلاد الإغريق . فلم تكن الدولة كما نعرفها الآن تؤلف من عدة مدن وقرى ومستعمرات خارجة عنها أو بعيدة منها معروفة عند الإغريق فى بلادهم . وإن كانوا قد سمعوا عنها عند الفرس والمصريين . فكانوا إذا تصوروا حكومة لم يتجسم فى أذهانهم سوى المدينة . أما القصر فلم تكن له شخصية قانونية عندهم . ولم يكن أفلاطون هو الوحيد الذى تخيل حلم المثل الأعلى للحكومات والمجتمع فقد ذكر أرسطوطاليس أن من يدعى " فالباس " قد تخيل مثل هذا الخيال ، وقال بوجوب المساواة فى حقوق الإمتلاك وأن " هبودامس " أيضا قد وضع كتاباً فى تخطيط المدينة الفاضلة

ولكن جمهورية أفلاطون هى الأثر الباقي من تلك الأحلام بموقد تخيلها عقب تلك الحرب الرائعة التى نشبت بين اسبارطة وبين أثينا

وطالت مدتها وأمتد لهيبها إلى جملة بلاد فخربتها ونشرت الفوضى فى مجتمعاتها . والخراب والدمار والفوضى التى تحدثها الحروب تجبرى الناس على التفكير والترسيم، وتوجههم إلى الإقرار بسوء النظم القديمة وضرورة اختطاط الخطط الجديدة . وكما فكر الرئيس ولسون فى إيجاد عصبة الأمم عقب الحرب العالمية الأولى ، فكر أفلاطون أيضا عقب حروب اسبارطة وأثينا فى إيجاد نظام جديد يضمن للناس السعادة والرخاء .

لم تكن الدول فى عهد أفلاطون قطراً بل كانت مدينة . لذلك قصر حلمه على المدينة لا على القطر . بل هو يجعل مدينته صغيرة بحيث يمكن اجتماع جميع سكانها لخطيب واحد ، أو يمكنهم أن يشتركوا فى لعبة واحدة ، ويمكنهم التعارف والمصادقة فلا يكون أحدهم غرباً عن الآخر .

ولنذكر أن وسائل الإشتراك فى رأى والتعارف الموجودة بيننا الآن لم تكن موجودة فى زمنه . فنحن نتعارف إلى حد كبير بالصحف والتلفزيون والتليفون والهريد . ثم أن وسائل المواصلات نفسها تقرب البعيد من المسافات وتجعل الاجتماع ممكناً على الرغم من بعد الشقة بين المجتمعين . ولكن الحال لم تكن كذلك فى زمن أفلاطون . ولذلك جعل مدينته صغيرة ، يبلغ عدد سكانها خمسة آلاف نفس فسقط

فجمهورية أفلاطون هي قرية متمدينة حولها حقول خاصة بها
للزراعة ، وأهلها في حال وسط بين الترف وبين الفاقة . فلا الترف
يكسبهم الرخاوة التي تبلى الجسم والحواس ، ولا الفاقة تضعف أجسامهم
وتكدهم في العمل الشاق . ثم أن الفاقة والترف كليهما يعود بأسوأ
العواقب على الفنون . ولا يمكن إغريقياً أن يفكر في مثل أعلى لا
يعنى الناس فيه بالفنون . فجمهورية خالية من الغنى ومن الفقر لأن :
الأول يلد الترف والرخاوة ، والثاني يلد الدناءة والرذيلة . وكلاهما
يحدث الاستياء

والناس في الجمهورية سواء فيما يملكون ، ويحصلون على ما
يحتاجون إليه عن حاجة حقيقية ولا ينالون ما لا يحتاجون إليه ، وكانت
غاية أفلاطون توفير السعادة للناس ، ولكن هذه السعادة لا تنال بما
تملك من عرض الدنيا بل بما في أنفسنا من خصوبة وزكاوة . فسعادته
ليست سعادة النهم الذي يلد له إلتهمام الطعام ، بل سعادة الراقص
أو العازف الذي تلذ له حركاته وما فيينا من خفة ورشاقة . فهو لذلك
يساوى بين الناس فيما يملكون ، لأنه لا يرى أن الإمتلاك يميز شخصا
على آخر من حيث السعادة

والهيئة الاجتماعية في هذه الجمهورية مؤلفة بالطبع من أفراد ،
ولكن اجتماع هؤلاء الأفراد ليس اجتماعا اعتباريا إذ هو مؤلف
اختلف أعضاء جسم الإنسان في شخصه

فكل إنسان فى هذه الهيئة يخدمها وفق كفايته وقدرته كما يخدم العضو الجسم . وإنما يحدث السلام والوفاق بين أعضاء هذه الهيئة إذا اختص كل عضو بوظيفته لا يتعداها إلى غيرها . فالعدل فى هذه الجمهورية هو : " إيجاد مكان لكل إنسان ، وأن يكون كل إنسان فى مكانه " . على نحو ما نرى فى الجوقة الموسيقية . فإن الخلل يصيب الجوقة جميعها إذا خرج أى إنسان منها من مكانه ، والوفاق بين نغماتها يزول إذا قام واحد منها بتعديل ما كلف به من النغم لإيجاد اللحن العام للجوقة جميعها

ولكن كيف يمكن أفلاطون أن يضمن بقاء كل إنسان فى صناعته ومكانه لا يتخطاها إلى غيرها ؟

هنا احتاج أفلاطون إلى إيجاد نظام الطبقات ، طبقة تختص بدرس الحكمة وتدير شئون الجمهورية السياسية والحكومية ، وهذه هى طبقة الأوصياء . وطبقة تختص بالجندية لحماية المدينة ، فهذه طبقة المقاتلة . وطبقة تختص بالزراعة والصناعة ، وهذه هى طبقة العمال وعناية أفلاطون هى بالطبع بالطبقتين الأولتين ، أما الطبقة الثالثة فلا يبالى بها كثيراً ، إذ هى رعية حكومية ، فوقها طبقة الأوصياء يأمرهم وينهون ، ودونها طبقة المقاتلة تنفذ أوامره . وليست هذه الطبقات جامدة لا يمكن أحداً أن يرتقى من طبقة إلى طبقة إذا ظهرت منه كفايته وهو بعد صغير يمكن تربيته

وقد ألغى حقوق امتلاك الأشياء وحقوق امتلاك الزوجات بين طبقة الأوصياء وطبقة المقاتلة ، ولكنه أبقاهما بين طبقة العمال . وهو إنما ألغى الزواج والامتلاك بين هاتين الطبقتين عناية بهما ، لأنه يريد أن يخضع أفرادهما لنظام خاص حتى ينشأ أفراد كل طبقة على صبغة خاصة

أما الإبتداء فى تقسيم الطبقات فمن الصعوبة بمكان ، فإنه ينبئ بالطبع على الانتخاب . يختار الصبى الذكى لكى يكون وصياً ، فيرسى تربية خاصة ثم يختار صبى آخر يميل إلى الرياضة البدنية وتبدو عليه دلائل القوة فيختار لطبقة المقاتلة

ولنتظر فى الوسائل التى يتخذها أفلاطون لتخليد هذا النظام ودوام بقائه . فهذه الوسائل تتلخص فى ثلاثة أشياء ، وهى : التوليد ثم التربية ثم الرياضة اليومية

فأما فى طبقة العمال الذين يزرعون ويصنعون فليس هناك توليد مقصود بينهم ، فهم يتزوجون وينسلون . أما تربية أولادهم فهى التربية الشائعة بين الزراع والصناع . يتعلم الصبى عند زارع أو صانع فيتعلم منه حرفته ، ويتخرج عليه ، ويحترف هذه الحرفة ، وليس له رياضة يومية خاصة .

أما طبقة المقاتلة فيعيشون فى ثكنة خاصة . فلا يملكون ولا يتزوجون ، وإنما يتعارفون إلى النساء ، فإذا حملن منهم لم ينتسب

الابن إلى أب معروف ، بل ينشأ مقاتلا ، يتربى تربية الطبقة ، ولا يعرف ولا لغير وطنه ، ولا يبالي بمصلحة لغير مدينته . ثم يربى الطفل تربية قاسية ، فإذا كانت به عاهة قتل ونبذ ، أما إذا وافق جسمه صناعة القتال احتفظ به وعنى به ودرب تداريب خاصة لتقوية جسمه وذهنه

وكذلك الحال فى طبقة الأوصياء . يتلاقح النساء والرجال بدون تعيين امرأة بعينها لرجل بعينه ، حتى يضيع النسب ولا يعرف أحد والديه . وهذا مع العناية بالانتقاء . فأجمل الرجال وأكثرهم حكمة وعقلا يشجع على التناسل حتى يكثر أولاده ويرثوا صفاته فى الشجاعة والعقل . وكان أفلاطون يرى أن التفوق فى خدمة الجمهور يجب أن يمنح صاحبه حق التلاقح مع عدد من النساء أكبر مما يمنح غيره . وليس من الواضح هل قال أفلاطون ذلك على سبيل مكافأة الوصى لحسن بلائه فى خدمة الجمهورية أو لأنه يريد الإكثار من نسله لأن تفوقه فى الخدمة دليل تفوقه فى العقل

ولم يكن أفلاطون يسمح للطبقات بالاختلاط الجنسى ، فلكل طبقة نساؤها ورجالها لا يتعدونها إلى غيرها . فكأنه كان يريد أن يجعل كل طبقة سلالة خاصة لها صفات خاصة . وكان كما قلنا "اسبرطى" المزاج يكره الضعف والمرض ، فكان يقول بقتل جميع الأطفال المؤوفين وتحديد عدد أطفال طبقة العمال حتى لا يفتنوا

على غلات الأرض

أما تربية الأوصياء فكانت التربية الإغريقية المعروفة فى زمن أفلاطون مع التعديلات التى يحتاج إليها نظامه . ولما لم يكن للأوصياء عائلة ، فإن أولادهم يوكلون إلى مربين يعهد إليهم ثقافة أجسامهم بالألعاب الجمبازية وثقافة عقولهم بالموسيقى ما داموا صبياناً ثم يلقن الصبى ضروب المعارف على طريقة اللعب ، بحيث لا يشعر أنه يكدر للتعليم ، وإنما يتعلم وهو يلعب مسروراً . فإذا شب وضع له نظام آخر فى للتعليم . ثم يمتحن الشبان من وقت لآخر ، فلا يدخل طبقة الأوصياء سوى الذين ثبت بالامتحان أنهم أهل لأن يتولوا حكومة المدينة . ويعيش الأوصياء فيما يشبه الشكنة ، ولا يجوز لأحد منهم أن يقتنى بيتاً أو مخزناً ، ولا يجوز لهم أن يمتلكوا أى شىء إلا تلك الأشياء الضرورية التى لا يستغنى عنها إنسان ، وهم يكافأون مكافأة معتدلة تكفى حاجتهم ، بحيث لا يشعرون بضيق الفاقة ولا يجدون أيضاً سبيلاً إلى الترف . وهم يأكلون معا ولا يجمعون الذهب أو الفضة . والقصد من كل هذا النظام أن يبقى الوصى نزيها لا تشغله مشاغله الخاصة عن النظر فى شئون المدينة وينحرف رأيه فى حكم لمراعاة مصلحة خاصة . فليس له قريب يحاييه ، أو ولد يدخر له المال ، وكذلك أيضاً لا يختلط بالناس ولا يعاشر أحداً من غير طبقته فتستحيل المعاشرة إلى مصاحبة أو مصادقة تحول دون النزاهة

والأوصياء يكونون فى شبابهم من طبقة المقاتلة يقضون وقتهم فى
تشقيف أجسامهم وعقولهم . فإذا بلغوا الخامسة والعشرين عهدت إليهم
الرياسة فى بعض أقسام الجيش وجرئوا على اكتساب التجارب . فإذا
بلغوا الثلاثين ، وجاوزوا الإمتحانات الشاقة ، صاروا أوصياء وعندئذ
تقتصر أعمالهم على درس الفلسفة ووضع نظام الحكم

وليست مهمة الإوصياء سن القوانين ، وإنما هى اختراع نظم الحكم
أو وضع الدساتير للمدينة ، لضمان حرية الأفراد . فالحرية هى الهم
الأول الذى يهتم له أفلاطون ويعدّها أخطر ما ينبغى العناية به . فهو
لذلك يوكل حراستها إلى الأوصياء الذين يجب عليهم اختراع الأنظمة
التي تضمن عدم العبث بها . فبالناس فى مدينة أفلاطون يحكمون
أنفسهم ، وإنما يضع الأوصياء الدساتير لهم ، سواء أكان ذلك لطبقة
العمال أم لطبقة المقاتلة ، فهم أشبه بالمشرّفين منهم بالحكام . فإذا
وجدوا أن الدستور الموضوع لطبقة العمال مثلاً لا يفي بحاجتهم استبدلوا
به غيره

وهذه الأفكار هى أعقد ما فى الجمهورية . فإن أفلاطون يعتقد
أن وراء هذا الكون المحسوس أفكاراً قد سبقته ، وهى منه بمثابة الأصل
والسروح . وهذه الأفكار هى الأشياء الثابتة ، بينما المحسوسات
التي نحس بها هى الأشياء الزائلة . فأنا أكتب الآن مثلاً بقلم
محسوس ، ولكن فكرة القلم قد سبققت مسادة القلم

والفكرة هي الثابتة وأما العادة فهي الزائلة . ومن هنا اهتمام أفلاطون بالرياضيات ، لأنها كلها أفكار . وهو يرى ضرورتها لكل من ينشد حكم الناس . ثم يخرج الطلبة بعد درس الأفكار إلى المجتمع ، وعليهم أن يعيشوا كل منهم بمجهوده الفردي ، وكما يتيسر له ، حتى إذا بلغ الخمسين عين وصياً للدولة

ولكن كل هذا لا يقنع أفلاطون . فهو يقول بكل صراحة : " إن التربية يجب أن تبدأ قبل الولادة " فلذلك يجب أن يكون الأبوان سليمين . ويجب على الرجل أن يتزوج بين الخامسة والعشرين والثلاثين . والولد النفل ، أى ثمرة الزنى ، والولد المشوه ، كلاهما يجب قتلهما عقب ولادتهما

* * *

وقد يرى القارىء أن أفلاطون قد أستسلم للخيال فى توهمه إلغاء الزواج والامتلاك فى طبقتى المقاتلة والأوصياء . وهذا صحيح إلى حد ما ، ولكن ينبغي أن نتذكر أن الرهبانية المسيحية ، وخاصة نظام اليسوعيين منها ، قد سار على نحو من هذا النظام . فالراهب لا يملك زوجة ولا شيئاً آخر ، ومع ذلك نجح هذا النظام . وإذا كان الإنسان قد أستسهل إنكار الذات والتضحية بخرائزه الجنسية وغيرة التملك فى سبيل الخدمة الدينية فلم لا يستسهل ذلك فى سبيل خدمة الإنسان ؟

وإذا كان فى الناس جماعات يرصدون حياتهم لخدمة الله ، يحبسون أنفسهم فى أديار لا يخرجون منها مدى حياتهم ، يقضون أيامهم فى الصلاة والتعبد ، فلم لا يكون بينهم من يفعل ذلك فى سبيل درس الحكمة وإيجاد النظم للحكومات وضمان الحرية للأفراد ؟

فيجب ألا نتوهم أن افلاطون قد استسلم للخيال كل الإستسلام ، فهو يريد أن يكل حكم الناس إلى الفلسفة . وهو يرى ، كما رأى بعده نبي الإسلام ، أن الولد مجبنة ومبذلة لأبيه . فعمد إلى سبب ذلك فوجده فى الزواج ، فألغاه ، حرصاً على أن يبقى الرضى أو المقاتل نزيهاً لا يعمل إلا لمصلحة مدينته . وقد ذكرنا الرهبان دليلاً على إمكان نزول الطبيعة البشرية عن حق التمتع بالزواج والإمتلاك . ونذكر جيش الإنكشارية عند الأتراك دليلاً على أن الرباط العائلى يقلل من شجاعة الناس . فإن هذا الجيش كان يؤلف من صبيان التصارى الذين يؤسرون ، فينشأون وهم لا يعرفون لهم عائلة ، فكان هذا من أسباب شجاعتهم واستماتتهم فى القتال

حلم توماس مور

بعد أن مات الإغريق ماتت الحرية الفكرية فى جميع أنحاء العالم إلا بصيصاً منها بقى عند العرب ، يومض ويخبو ، تبعاً للزمان والمكان. فقد كان الإغريق جريئاً ، يجازف فى الخيال ولا يبالي بالآلهة أو بالناس. وذلك لأن الآلهة والناس ، كليهما ، لم يكن لهما ذلك السلطان الذى صار لهما فيما بعد ، أى بعد ظهور المسيحية والاباطرة والملوك . فقد كانت الآلهة الإغريقية كثيرة العدد ، كل منها مختص بعمل ، فلم تكن له حرمة آله المسيحية أو آله الإسلام ، أو مالهما من السيادة الأتوقراطية ، والعلم بكل شىء ، وأملاء كل شىء على الناس . وكذلك لم يكن لهم ملوك مستبدون يمنعون الناس من التفكير فى أشكال الحكومات وسياسة الدول وسن الشرائع

لم يكن شىء من ذلك عند الإغريق ، فكانت أفكارهم تنطلق حرة تسبح أينما تشاء . وكان فلاسفتهم يكتبون فى كل ما يعرض لهم بلا تحرج ، لا يتورعون من دين ولا يخشون بأس ملك. ثم كانت المسيحية

(ولد مور سنة ١٤٧٨ ومات سنة ١٥٣٥)

واللهها قادر علي كل شيء عارف بكل شيء . فخرج الملكوت من يد الإنسان الي يد الله . ومن هذا العالم إلي العالم الآخر . فإذا كان "أفلاطون" قد وجد المجال واسعاً لأن يتخيل ويحلم في إيجاد ملكوت أرضي ، ينال فيه الناس السعادة والهناء ، فإن المسيحية قد ضيقت هذا المجال لأنها إوجدت من جنة النعيم في الآخرة بديلاً من مثل هذه الأحلام . ولم تكن هذه الأرض في نظر المسيحية سوي دار بلاء وتجربة يعبرها الناس إلي جنة النعيم . وهذا أيضاً هو نظر الإسلام . ثم كان ملوك النصاري وخلفاء المسلمين عائقاً آخر يمنع التخيل والبحث في المثل العليا للحكومات والهيئات الاجتماعية . لأن بحث هذه الموضوعات دليل السخف علي النظم الموجودة التي لا يرضي ملك أو خليفة بانتقادها

ثم كانت النهضة الأوروبية ، فعادت أوروبا إلي نفسها القديمة وأخذت تعني بتاريخ الاغريق . فصارت تدرس ثقافتهم ، وتتمثله ، حتي نزعت نزعة اغريقية جديدة . فصار علماءها وفلاسفتها يتنبأون ويتخيلون ويحلمون

وكان من هؤلاء الحالمين "توماس مور" الإنجليزي ، وكان وزيراً لهنري الثامن . فلم يكن حلمه مبنياً علي أسس الخيال ، فقد خبر الدول وعرف من ممارستها الطويلة للسياسة بعض حقائق الطبيعة البشرية . فهو لذلك يتخيل ، ولكنه يبني خياله علي أساس من الحقائق

ويظل حلم توماس مور برتغالي يدعي " هيتلوداي " كان يعرف الإغريقية ، وقد أعتاد المجازفات الفكرية من فلاسفة هذه اللغة ، ولكنه لم يكن رجل كتب فقط، فقد عرف رجلا يدعي " فسيوتيوس " زار معه أمريكا الشمالية والجنوبية وجزائر الهند الشرقية ، وهناك رأى بلادا تخالف ما ألفه في بلاده من حيث المؤسسات والنظم وتركيب الهيئة الاجتماعية . فهو لذلك يروي ما رآه في هذه الرؤيا

يقول هيتلوداي أنه زار جزيرة طولها مائتا ميل ، قد خطت في وسط المحيط بهيئة الهلال يتقوس حول خليج كبير بحيث يسهل الدفاع عنها من غارة أوعدو . وبالجزيرة ٤٥ مدينة ، أقربها تبعد عن الأخرى بمقدار ٢٤ ميلا ، وأبعدها تكون على مسيرة يوم منها ، وعاصمة الجزيرة بلدة تدعي " أموروط " . ولكل بلدة اختصاص قضائي على ما حولها من الأرض إلى ما يبعد عنها بعشرين ميلا

والزراعة هي أساس المعيشة في هذه الدولة ، فليس فيها من يجهل هذه الصناعة . فهناك فلاحون يقضون كل حياتهم في الحقول ، لهم دساكرهم منبثة في الريف ، ولكن عند الحصاد يرسل عمال من المدن لمساعدة الفلاحون . وكل دسكرة تحتوي على أربعين رجلا وأربعين امرأة. وفي كل عام يعود عشرون من هذا العدد إلى المدينة ويستبدل بهم عشرون آخرون يرسلون من المدينة إلى الدسكرة كي يتعلموا الفلاحة

والفلاحة متقدمة من وجهيها الاقتصادي والإنتاجي . فهم يعرفون كيفية إنتاج الدجاج بطريقة صناعية ، ويعرفون مقدار الطعام المطلوب لأهل الجزيرة فيزرعون ما يكفي أو ما يفيض قليلا عن الكفاية ومع أن جميع سكان الجزيرة يعرفون الفلاحة ، وقد مارسوها بعض عمرهم ، فإنهم جميعا يعرفون صناعة أخرى يزاوونها ، كالبناء والتجارة والحداة والحياكة . وجميع الصناعات متساوية القيمة فلا تفضل واحدة أخرى . والناس يتبعون آباءهم في الصناعات . فالصناعة تمارسها العائلات لا الأفراد ، وإذا مال واحد إلى صناعة تخالف ما يزاوله أبوه ذهب إلى عائلة أخرى ، فتتبناه العائلة ، ويأخذ في تعلم صناعتها . ويمكنه إذا أراد ، أن يتعلم صناعة أخرى باتباع هذه الطريقة نفسها . ثم له أن يختار ما شاء منهما

وينحصر عمل القضاة تقريبا في إجبار الناس على العمل . وليس معنى هذا أن أهل الجزيرة يكدون أنفسهم ليل نهار ، فإن لهم توقيتا للعمل والراحة . فهم ينامون ثمانى ساعات، ويشتغلون ستاً، ويتصرفون بسائر اليوم كما يشاؤون . وهم يشتغلون هذا العدد القليل من الساعات لأن كل إنسان مجبر على العمل ، فليس بينهم أشراف أو أمراء أو شحاؤون يعيشون عالة على غيرهم . ولا يعفى من هذا الأجبار سوى الطالب في المدرسة أو القاضي

وبين المدينة وديساكر القرى مقايضة تحدث باحتفال عام كل شهر.

فيأخذ الفلاحون ما يحتاجون إليه من صناعة أهل المدن، ويأخذ أهل المدن ما يحتاجون إليه من غلات الريف . ولا بد أن لهذه المقايضة نظاماً ، ولكن هيتلر دأى لم يذكر هذا النظام

والمدينة مؤلفة من عائلات ، والصناعة كما قلنا تمارسها العائلة لا الفرد . قال هيتلر دأى : " كل مدينة مقسمة أربعة أقسام . وفى وسط كل قسم سوق . فما تحضره العائلات من مصنوعات يؤخذ ويصف كل إلى نوعه فى أمكنة خاصة . ثم يذهب الآباء ويأخذون حاجاتهم من هذه الأشياء بدون أن يدفعوا ثمنه أو يضعوا شيئاً بدلاً منه على سبيل المقايضة

" وليس هناك ما يدعو إلى أن يشكر على أحد طلبه ، وذلك لوفرة ما هو معروض من هذه الأشياء، مولأنه لا خوف من أحد أن يأخذ أكثر من حاجته ، إذ ليس هناك ما يفرضه بذلك لأنه متأكد من وجود هذه الأشياء على الدوام "

ثم يقول : " ان خوف الحاجة هو الذى يوجد النهم والطمع فى نفوس الحيوان ، ولكن إلى جانب الخوف نجد عند الإنسان خصلة أخرى هى الكبرياء، بحيث يتوهم الإنسان أن تفوقه على غيره فى الأبهة مما يزيد فى مجده وعظمته ، ولكن ليس أحد يسعه أن يفعل ذلك فى الجزيرة "

فتوماس مور لا يحلم بشيوعية النساء ، كما حلم أفلاطون ،
ولكنه يحلم بشيوعية الأملاك . وهو لكى يحقق هذه الشيوعية يلقى
النقود . فالناس يأخذون حاجاتهم بدون ثمن
وفى كل عام يجتمع القضاة (وهم الحكام أيضاً) فى العاصمة
"اموروط" فينظرون فى غلات كل منطقة ويرسلون إلى المناطق المحتاجة
إلى بعض السلع ما تحتاج إليه من فائض المناطق الأخرى
وليس للذهب أو الفضة أو الجواهر قيمة عند أهل الجزيرة . ولذلك
فالرؤيا كما يراها توماس مور لا تقاس إلى رؤيا يوحنا ، من حيث
الزينة واللاأ ، مع أن الأولى يقصد تحقيقها فى هذا العالم والثانية لا
تتحقق إلا فى السماء . وغريب أن يدعو رجل الدنيا إلى ملكوت خلو
من الزينة والجواهر فى حين يدعو إليها رجل الدين فى ملكوت السماء
أما "اموروط" عاصمة الجزيرة فتقع على تل ، وحولها سور ،
والمنازل مشيدة على نسق واحد حتى كأن الشارع بناء واحد . وسعة
الشارع عشرون قدما . ووراء كل منزل حديقة يعنى السكان بها
ويتعهدونها حتى تبقى فى نضارة دائمة . وفى كل شارع قاعات خاصة
مبنية على مسافات متساوية ، يقيم فيها القضاة (الحكام) وكل منهم
ينظر فى شؤون ثلاثين عائلة نصفها فى جانب من الشارع والنصف الآخر
فى الجانب الآخر

وفى هذه القاعات يتناول جميع السكان غذاهم . ويقوم بطهى
الطعام نساء الثلاثين عائلة بالتناوب . وإلى جانب هذه القاعة معبد ،
ومكان آخر للعب الأطفال الذين تأتى أمهاتهم للطبخ فى نوباتهن
ولننظر الآن فى حكومة هذه الجزيرة . فالعائلة هى أساس المجتمع ،
وكل ثلاثين عائلة تختار كل عام قاضياً ، ولكل عشرة قضاة رئيس .
وجميع قضاة الجزيرة الذين يبلغون ٢٠٠ يختارون أميراً ، وتكون
أمارته مدة حياته مالم يتهم بمحاولة استعباد الاهالى . ولكى يمنع الامير
أو غيره من محاولة قلب نظام الحكومة بمعرض كل مشروع على جميع
السكان . فإن القاضى يعرضه على العائلات الثلاثين الداخلين فى
اختصاصه ، ثم يتناقشون فيه ، ويرفع هو قرارهم إلى مجلس الشيوخ
والعائلة كما رأيت ليست وحدة بيتية فقط ، بل هى أيضا وحدة
صناعية ، فإذا سارت قاعدة للأنتخاب ضمن النظام الديمقراطى
للحكومة ضمن بذلك بقاؤها

ولكن فى هذا الحلم أشياء جديرة بالانتقاد لم يستطع توماس مور
أن يخرج فيها عن حكم بيثته . فلم يدرك مثلا أن تكاثر السكان ، مع
العناية بصحة الاهالى وتوافر الغذاء لهم ، سيؤدى حتماً إلى أن يفيض
السكان على طعامهم وإلى إيجاد الفاقة بين جميع السكان . وهذه غلطة
يعذر فيها توماس مور ، فإن الوفيات فى عهده كانت كثيرة تكاد
تعادل المواليد . فلم يكن يخطر بهال أحد أن يتخيل مثلا أعلى للمجتمع

يحدد فيه عدد السكان ، وإن كان ذكاء أفلاطون قد جعله يحسب لهذا

الاحتمال ويوصى بقتل الفائزين من الأولاد

ويظهر من مسائل أخرى عالجها توماس مور أن مستوى المثل الأعلى عنده لم يكن عالياً إلى الدرجة التي يمكننا أن نتخيلها. ويظهر هذا خاصة في معالجته مسألة انتقال الأهالي من مكان لآخر ومسألة الحرب

ففي مسألة الانتقال يحتم على كل فرد أن يحصل على جواز من أمير الجزيرة . فإذا غاب أكثر من يوم يجب عليه أن يمارس صناعته في المكان الذي أنتقل إليه . وإذا وجد إنسان يجول في مكان وليس معه جواز فإنه يعاقب . فإذا عاود هذا الفعل عومل معاملة العبيد . ويبدو للقارىء من معاملة توماس مور لهذه المسألة أنه لم يكن أقل عناية بالتفكير الجدى فيها ، أو أنه أراد أن يحصل على عبيد لجزيرته فإنه وجد أن من أعمال الناس التي يحتاجون إليها ما هو قدر في طبيعته لا يرضى بمزاولته أحد باختباره ، مثل ذبح البهائم وتنظيف الطرق وما إليها ، فخص العبيد بالقيام بهذه الأعمال وأوجد الرق بأوهى الأسباب في نظام المجتمع ، حتى يعيش أفرادها منزهين من كل ما في مزاولته قذارة . ولكنه نسي شيئاً آخر ، وهو أن معايشرة العبيد تؤثر في الأسياد . وإذا ألفنا الاستبداد من السيد للعبد صار أيضاً مألوفاً من الأمير للسيد

أما الحرب فهو يجيزها على شروط . منها الدفاع عن الأرض ، واضطهاد التجار الأجانب ، ومنع الأمم من الهجرة إلى بلاد يمكن زراعة أرضها وليس من يزرعها من أهلها . ومن هذه الشروط يرى القارىء أن توماس مور كان يكتب مستظيهاً بالحوادث التى جرت فى عصره . فقد كانت أمريكا حديثة العهد بالاكشاف ، والهجرة إليها متصلة . وكانت سفن التجارة يقبض عليها فى الموانئ . ويسلب ما فيها من السلع . ولكنه يؤلف الجيش بطريقة " يوجنية " فهو يصطفى أسوأ الرجال لتجنيدهم فى الحرب ، حتى إذا قتلوا استفادت الأمة بفقدهم على نحو ما يقطع الزارع الأعشاب الضارة من حقله

ولنتظر الآن فى شروط الزواج والدين . فأهل هذه الجزيرة يسمحون للعروسين بأن يرى كل منهما الآخر وهو عريان قبل الزواج . وللطلاق علتان الأولى الزنا ، والثانية التواء أحد الزوجين على الآخر بحيث لا يمكن تقويمه . ومن زنى يحكم عليه بالرق ، ولا يمكن أن يتزوج رجلاً كان أم امرأة

هذا هو حلم توماس مور . وليس فيه فكرة مبتكرة أو خيالا بعيداً ولكن وراء مقترحاته كلها فكرة واحدة ، وهى أن يسيطر الإنسان على الممتلكات ويتمتع بها ، لا أن يكون هو نفسه عبداً لها يقضى حياته فى جمعها واختزانها ويجهد جهده فى المحافظة عليها وحراستها

ورعايتها . يحسب بذلك أنه مالئها . والحقيقة أنها هي التي تملكه وتسترقه . وهو لذلك يلغى النقود لأنها وسيلة ادخار الممتلكات ، ويحتم على الجميع أن يشتغلوا في الزراعة ، ولو بعض وقتهم ، حتى يشعر كل إنسان أنه منتج . ثم يحتم على كل إنسان يصنع شيئاً إن لم يزرع . ثم يعرض جميع السلع على كل الناس يأخذون منها ما يشاءون ، لا يخشى أن أحداً سيحتجج إليه ويدخر أكثر مما هو في حاجة إليه أما أوقات الفراغ ، وهي كثيرة ، فتقضى في طلب العلوم والآداب، يحاول كل إنسان أن يرقى ذهنه بما يقرؤه أو بما يناقش فيه إخوانه

أندريا وحلمه

" بوحنا فالتين أندريا " ألماني ومسيحي أيضا ، وحلمه يراد به تحقيق المدينة المسيحية كما يتوهمها رجل مؤمن بهذه الديانة . ولكنه ، مثل سائر رجال الدين ، يفتيق كثيراً من حلمه فتغلب عليه لهجة الوعظ الديني . فما يزال يعظ ويعظ حتى يسأم القارىء . وهو يبدأ حلمه بأن يروى للقارىء رحلة له في البحر حيث تتحطم سفينته على صخور جزيرة هي مسرح هذا الحلم . فقد كان بهذه الجزيرة مدينة : " كريستيانوبوليس " أو المدينة المسيحية ، فإذا أراد أن يدخل هذه المدينة امتحنه أهلها أولاً في الفضائل والأخلاق والثقافة . ولما لم يروا فيه شيئاً مناقضاً أذنوا له بالدخول

واليك الآن وصف هذه المدينة : كانت في هيئة مربع طول جانبه ٧٠٠ قدم ، وهي محصنة بأربعة أبراج وسور ، فهي لذلك تطل على الأركان الأربعة للعالم . والبيوت مبنية على صفين . ولكنك إذا حسبت الحكومة والمخازن فهي أربعة صفوف . وليس فيها سوى شارع (ولد أندريا سنة ١٥٨٦ ومات سنة ١٦٥٤)

واحد ، وسوق واحدة ، ولكنها من الطراز الأول . وفى وسط المدينة
معبد مستدير قطره ١٠٠ قدم . وفى جميع البيوت ثلاثة طوابق ، ولها
كلها " بلكونات " متصلة . وتجد على وجه العموم أن البيوت يماثل
بعضها بعضاً . فليس هناك سرف أو قذر . والهواء النقى يجوس خلال
البيوت كلها . وفى هذه المدينة يعيش أربعمائة من السكان فى هدوء
الإيمان الدينى والسلام . أما سائر الجزيرة فإنها خاصة بالزراعة
والمصانع

و " المدينة المسيحية " من حيث الصناعة منقسمة إلى ثلاثة أقسام
واحد للصناعات الخفيفة التى لا تحتاج إلى نار ، وآخر للصناعات
التى لا تحتاج إلى وقود وتبقى فيها النيران ، والثالث لتربية الحيوان
والأعمال الريفية . والغرض من هذه القسمة ألا تؤذى هذه الصناعات
الناس الساكنين بجوارها إذا كانت متفرقة فى أنحاء المدينة بلا ضابط .
والعمال الذين يشتغلون فى هذه المصانع لا يساقون إليها سوق الأنعام ،
بل هم قد تعلموا قبلاً وحصلوا على " معرفة صحيحة للمسائل العلمية
" . ونظرية صاحب الحلم ، فى ضرورة هذه التربية العلمية للمصانع ،
وهى : " أنك إذا لم تحلل المادة بالتجربة ، وإذا لم تستعص عن نقص
معلوماتك بتحسين آلاتك ، فلا فائدة منك "

وهسذه لمحة عجيبة من أنسدريا فى رؤياه ، إذ يقول بفائدة
العلم للصناعة وبإمكان تعليم الصانع . وكلاهما غرض لم يتحقق

فى جميع الأقطار المتمدينة للآن ، بل من الناس من لا يؤمن بهـا .
والبك الآن وصفه للصناعة : " أن عملهم ، أو استعمال أيديهم كما
يقولون هناك ، يجرى على نمط خاص . وجميع ما يصنع يحمل إلى
مخزن عمومى . ويأتى الصانع فيأخذ من هذا كل ما يحتاج اليه لعمله
فى الأسبوع القادم ، وذلك لأن المدينة فى الحقيقة مصنع واحد متنوع
الصناعات . وإذا كان بالمخزن كمية مدخرة كبيرة من المصنوعات ، فإن
الصناع يؤذن لهم بالإنطلاق من قيود العمل واستعمال أذهانهم فيما
يشاؤون . ولا يحمل النقود أحد من الناس وليس للنقود أية فائدة
عندهم . ومع ذلك فللجمهورية خزانتها . والسكان من هذا الاعتبار لهم
ميزة المساواة ، ليس أحداً منهم أوفر مالا من غيره ، وإنما يمتازون بقوة
أذهانهم ويتفاضلون بأخلاقهم وصلاتهم . وعدد الساعات التى
يشتغلون فيها قليلة ، ومع ذلك فهم يتممون شيئاً كبيراً من الأعمال
لأنه من العار على أحد أن يأخذ من الراحة أكثر مما يؤذن له "

وهناك واجبات وطنية يؤديها السكان إلى جانب صناعاتهم كالحفر
والخصاد وتعبيد الطرق والبناء وصرف أقدار المدينة إلى مجاريها
أما التجارة الخارجية فليست فى يد أفراد يشتغلون لحسابهم ، بل
هى فى يد هيئة تعينها المدينة . وليس الغرض من هذه التجارة زيادة
الثروة والربح ، بل مقايضة سائر الأقطار على ما عندهم من السلع

التي لا تصنع في " المدينة المسيحية
وأساس هذا النظام عند أندريا هو العائلة المسيحية . فكل شاب
يبلغ الرابعة والعشرين ، وكل فتاة تبلغ الثمانية عشرة ، يتزوجان
ويؤلفان هما وأولادهما عائلة جديدة

وليس هناك ما يتكلفه الزوجان ، حتى أثاث البيت الجديد تقدمه
الحكومة بلا ثمن . وهذا الأثاث بسيط ، يمكن الزوجة أن تنظفه بأقل
عناء ، ولذلك ليس في المدينة المسيحية خدم للبيوت . فالنساء
متعلّمات ، والزوج يساعد زوجته في عمل البيت ما عدا الخياطة
والغسل . ثم هناك مطبخ عمومي يزود الزوجة بما تحتاج إليه من الطعام
إذا لم تكن قد طبخت لنفسها

أما الأطفال فيبقون في رعاية الأم إلى السادسة من عمرهم ،
وبعد ذلك يدخلون المدارس فيبقون في عنايتها إلى سن الشباب . وفي
هذه المدارس أفضل المعلمين . ويمكن الآباء أن يروا أبنائهم كلما شاءوا
. وفي غير أوقات الدراسة يعمل التلاميذ أعمالاً يدوية ويتميزون
بالفنون والعلوم ، كل يختار ما يميل إليه طبعه . أما أوقات الفراغ
فتقضى في رياضة الجسم . وفي مدارس " المدينة المسيحية " شبان
جديران باعتبارنا . أولهما أن للمدرسة دستوراً ، فهي أشبه شيء
بجمهورية صغيرة . والثاني أن المعلمين ينتقون من خيرة السكان ،

حتى إن أعلى الوظائف فى الدولة ليست مقفلة دونهم . وإليك الآن ما يقوله عن تعليم التاريخ الطبيعى :

" يرى التاريخ الطبيعى هنا مرسوما بالتفصيل على الجدران بأعظم مقدار من المهارة . فهىئة السماء ، ومناظر الأرض فى مناطق مختلفة ، وشعوب الإنسان المختلفة ، وأمثلة الحيوان ، وهىئة الأحياء ، وصنوف الأحجار والجواهر ، كلها مرسومة ومسماة . يتعلم منها الطلبة طبيعتها وأوصافها .. أو ليس من الحق معرفة أشياء هذه الأرض وأسهل فى الإيضاح إذا كانت هناك أمثلة توضح إلى جانب دليل يساعد الذاكرة ؟ . وذلك لأن العلم يجوز إلى الذهن عن سبيل العين بأيسر مما يجوز إليه عن سبيل الأذن "

وقد قلنا أن المؤلف ألمانى ، فهو لذلك لا يترك صغيرة ولا كبيرة فى هذه المدارس حتى يحصيها ، يصف معامل الرياضة ومعامل الطبيعة والتشريع والصيدلة بدقة ، كأنه يهيم ترسيما لمشروع سيتحقق . وهو على حبه الألمانى للعلوم لا يهمل أمر الفنون . فهو يقول : " أمام معمل الصيدلة دكان واسعة للفن التصويرى ، وهو فن يلذ لأهل المدينة العناية به . لأن المدينة ، فضلا عن أنها مزينة بصور ورسوم تمثل أشكال الأرض المختلفة ، تستعمل الرسوم فى هذه الدكان لتعليم الشباب وتسهيل هذا التعليم لهم . ثم أن صور العظماء وقائيلهم ترى فى كل مكان ، وفيها كلها ما يبعث فى الشباب عاطفة

تقليد هؤلاء العظماء فى فضائلهم

ومعبد المدينة هو بالطبع أهم بناياتها ، ويحوى من بدائع الفن ما يحويه غيره . ولكن أندريا كان كما قلنا رجل دين ، وقد زار جنيف ووقع تحت تأثير "كالفن" فهو لذلك يجعل العبادة فى المعبد إجبارية . والاجتماعات العمومية تعقد فى هذا المعبد ، كما أن "الكوميديات" الدينية تمثل فيها

والآن وقد ذكرنا شيئاً عن الصناعة والتعليم والعائلة فلنقل شيئاً عن الحكومة . ففى المدينة مجلس مؤلف من ٢٤ عضواً . والهيئة التنفيذية لهذا المجلس مؤلفة من ثلاثة أشخاص ، هم الوزير والقاضى ومدير التعليم . وأولهم يمثل ضمير الأمة ، والثانى الفهم ، والثالث الحقيقة . وإليك ما يقوله الآن عن عقاب المجرمين : " إن قضاة المدينة المسيحية يتبعون هذه العادة ، وهو أنهم يعاقبون بأقصى العقوبات تلك الجرائم التى تقع من إنسان نحو الله . ثم يعاقبون بأقل قسوة تلك الجرائم التى تقع من أحد نحو الناس . وأخف ما يعاقب عليه أحد هو تلك الجرائم التى تقع بالأملاك . وأهل المدينة يكرهون إراقة الدماء . وهم لذلك لا يستبيحون لأنفسهم عقوبة الإعدام . لأن كل إنسان يمكنه أن يقتل ، ولكن لا يقسدر على الإصلاح إلا خير الناس " ،

أضغاث أحلام

بيكون " و " كامبانيلا " كلاهما مشهور بحلمه . وأولهما
الإنجليزى وثانيهما إيطالى ، ولكنك إذا تفحصت أحلامهما عن المثل
الأعلى للهيئة الاجتماعية ألقيت هذه الأحلام أضغاثاً مجموعة من تلك
الرؤى الرائعة التى ألهمها أفلاطون ومور من قبلهما ، مع زيادات
طفيفة تدلنا على روح الزمن الذى وضع فيه هذان المؤلفان كتابيهما
فكامبانيلا يحلم بما يسميه " مدينة الشمس " وراء خط
الاستواء ، وهى لا تختلف عن جمهورية أفلاطون إلا من حيث شيوعية
النساء وشيوعية الأملاك . وإنما نجد فى كامبانيلا بعض عبارات تنبىء
بالقرنين الثامن عشر والتاسع عشر . فهو يقول مثلاً أن عند سكان
مدينة الشمس زوارق تسير على الماء ، لا بقوة الريح ، ولا بقوة
المجاديف ، وإنما " بأختراع عجيب " ثم أن أحد سكان المدينة يحدثه
فيقول :

" آه لو أنك تسمع ما يقوله المنجمون عندنا عن الأزمة القادمة.
فسيكون فى القرن الواحد منها من التاريخ أكثر مما فى أربعة آلاف
(ولد كامبانيلا سنة ١٥٦٨ ومات سنة ١٦٢٦) .

سنة ماضية . أجل ستكون فيها مخترعات الطباعة العجيبة ، والمدافع والمغناطيس .." ولما كانت المخترعات كثيرة فى "مدينة الشمس" وسائرة فى طريق النجاح فإن أهل المدينة ليسوا فى حاجة إلى استعمال الرقيق ثم : هم أغنياء لا يحتاجون إلى شىء وفقراء لأنهم لا يملكون شيئاً . وعلى ذلك فهم ليسوا عبيداً للظروف ، وإنما هم أنفسهم يستخدمون هذه الظروف

ففى هذا الكلام إيماء إلى المستقبل الذى كان يحس به كامبانيلا . فقد بدأ ضمير الإنسان يستيقظ فى زمنه ويتساءل : هل ما قررته الآلهة القديمة من الرق جدير بأن يقره الإنسان الجديد ؟ . وهل لا تقوم المخترعات يوماً ما بعمل الإنسان بحيث تزول عنه لعنة آدم أو توشك ؟ . ثم يجيب كامبانيلا بالإيجاب ، ويلغى الرق ، ويقصر العمل الذى يحتاج إليه الناس إلى أربع ساعات فقط . وذلك لأنهم كلهم يشتغلون ، ولأن المخترعات توفر لهم وقتهم

وأحلامنا على وجه العموم تبع لمزاجنا ومألوفنا . وعلى ذلك نقول أنه لما كان مور وأندريا متزوجين ، لكل منهما عائلة ، كانت العائلة أساساً من أسس الهيئة الاجتماعية التى تخيلها كل منهما . ثم لما كان أفلاطون وكامبانيلا أعز بين ، كانت شيوعية النساء أحد أركان الهيئة الاجتماعية التى رآها كل منهما فى رؤياه . الإنسان يتخيل وفق طبعه ومألوفه ، ولكن يجب أن نقول أن أفلاطون نفسه ، مع أنه كان أعزياً ،

لم يكن يؤمن كل الإيمان بشيوعية النساء . وإنما هو قصر هذه الشيوعية على الطبقتين السائدتين . أما طبقة المزارعين والصناع ، وهم بالطبع جمهور المدينة أو الأمة ، فإنه لم يقبل شيوعية النساء بينهم . مما يدل على أنه كان يدرك أن الزواج الذى يؤسس العائلة ضرورة لكثرة الأمة . وهو فى حرمانه رجال طبقة الأوصياء ، وطبقة المقاتلة ، من الزواج وتأسيس العائلة ، إنما ينقاد إلى تلك الفكرة التى تقول باستحالة خدمة غرضين . وهى الفكرة التى أوجدت الرهبان . وهى التى تجعل رجل الفن يمتنع أحياناً كثيرة لمصلحة فنه عن الزواج . فكما أن الراهب المسيحى لا يتزوج إرصاداً لنفسه على خدمة الدين ، ووقفاً لمواهبه على العبادة ، كذلك كان يرغب أفلاطون فى أن يرى الوصى أعزب يقف كل جهوده على مصلحة الأمة لا على زوجته وأولاده . فبالقاعدة عند أفلاطون هى الزواج ، أما الاستنشناء فهو الإباحة المقيدة

* * *

ولنتظر الآن فى بيكون وأضغاث أحلامه . فقد رأينا أن كامبانيلا لم يأت بطائل . وكذلك الحال فى بيكون ، بل خيال بيكون مقصوص الجناح إذا قيس إلى خيال كامبانيلا . ثم فى جناحه ريش مستعار أكثر مما فى جناح كامبانيلا . وكثير من هذا الريش المستعار قد رأيناه على أصله فى خيال أندريا وفى رؤيا أفلاطون . فلا حاجة إلى التكرار

وأهم ما فى رؤيا بيكون هو " بيت سليمان " وهو مؤسس أشبه
شئ بالكليات . الغاية منه : " معرفة علة الحركة فى الأشياء وأسرارها
، وتوسيع سلطة الإنسان حتى لا يعجز عن عمل أى شئ ممكن . وفى
هذا المؤسس معامل أو مختبرات محفورة فى جوانب التلال ، ومراسد
يبلغ ارتفاع أبراجها نصف ميل ، وفيها برك من الماء المالح والماء العذب
يبدو من أقوال بيكون أنه يريد منها أن تكون مختبراً لتربية الأسماك
وسائر الأحياء المائية . ثم فيها الآلات تدير الأشياء . ثم هناك أيضاً
مصنع لتجربة الأدوية ، وقاعات كبيرة لعرض التجارب الطبيعية ،
ومراكز زراعية كبيرة لعمل التجارب فى التطعيم . ثم المعامل الصيدلانية
والصناعية . ومعامل أخرى لعمل الاختبارات فى الصوت والضوء
والطوبى والطعوم . فهذه كلها يقول بيكون انها فى " بيت سليمان "
ويجمعها ركائماً مشوشة بلا تنسيق ، أشبه شئ بالذكريات منها بالرؤيا
المرتبة . ومن هذه الكلية ، أو " بيت سليمان " يخرج اثنا عشر عالماً
إلى البلاد الأجنبية للسياحة وجلب الكتب الغريبة وكتابة التقارير عن
المخترعات والأشياء العجيبة التى يرونها فى سياحاتهم . وهذه الكلية
هى أهم شئ فى مدينة بيكون التى يسميها " أتلنتيس الجديدة "
وسائر ما فى هذه المدينة لا يختلف عما رأيناه فى أفلاطون وأندريا .

(ولد بيكون سنة ١٥٦١ ومات سنة ١٦٢٦)

وهذه الكلية كما وصفها ببيكون هي الحلم الذي لا يزال يحلم به
للآن علماء الكليات . وقد أوشك أن يتحقق بعضه مثلاً في " مؤسسة
روكفيلر " في الولايات المتحدة . وهو يدلنا علي هموم ببيكون وأنها
كانت هموم رجل عالم جدير بأن يكون أحد أركان النهضة الأوربية .
فهو القائل بالعقل بدل النقل . يريد أن يبني الحقائق علي التجربة
والاختبار ، وأن يعيى قوي الانسان إلي ترقية العلوم والمعارف .
ويحشد لهذه الترقية جميع الكفايات التي في الأمة . ثم هو لا يترك
فرعاً من فروع المعارف الإنسانية ، صناعة كان أو زراعة أو طباً أو
غير ذلك ، إلا ويهيئ له وسائل التجربة والاختبار الذي عليه تبني
أصول هذا العلم أو الفن . ومع ما في رؤياه من التشوش والخلط ،
فإنه قد رسم لنا توسيماً يوشك أن يكون كاملاً عن كلية يقصد منها
تقدم العلوم وترقية المعارف

عصر الصناعة وأحلامه

يتسم القرنان الثامن عشر والتاسع عشر بظهور المخترعات الصناعية ووفرتها ، ولو قيست هذه المخترعات في هذه المدة القصيرة الي مخترعات الإنسان الآلية منذ خمسين ألف سنة لأريت عليها . إن لم يكن في الفائدة ، ففي تعدد أصنافها وتنوع أعمالها . فهذه الكثرة وحدها كانت من الدواعي القوية إلي أن يفكر الإنسان في مستقبل الآلات ، وأن يرجو منها أن تقوم مقام العامل نفسه وتوفر عليه راحته . ثم كان من ظهور الآلات وإقبال الناس علي الصناعة أن انتقلت الثروات الضخمة من البيوت القديمة إلي أفراد محدثين . فحدث من هذا الانتقال تزعزع في المجتمع ، لعدم انطباق الجديد علي القديم ، وأنتهي الحال الي الثورة الفرنسية . وليست الثورات في الحقيقة إلا محاولة عنيفة لإصلاح القديم الذي يتناقض مع الجديد ، فإن لم ينجح الإصلاح فإن الثائر يعمد الي الهدم . وكل هذه الأحوال تربة صالحة لأن يفرس فيها رجل المثل الأعلى ما يتوهمه من هيئة اجتماعية وما يحلم به من إصلاح . وقد سبق أن قلنا أن الإنسان ، إزاء الوسط الذي يعيش فيه ويشعر

بفساده أو ثقل أنظمته ، أحد ثلاثة : فهو إما أن يفر منه ويتحول عنه إلى وسط آخر يوافقه ، وإما أن يدافعه ويحتمي منه ، وإما أن يهاجمه متعمداً إيداله

ونحن إذا نظرنا إلى رجال القرن الثامن عشر ألفيناهم من الصنف الأول، ينفون الهروب. فقد تعاطفهم الفساد فأثروا تركه على معالجته. ففهم جميعهم روح " روينسون كروزو " يرضي بحال البداوة الساذجة في جزيره قصية ويعيش منفرداً له كفافه من العيش ، يؤثر هذه الحالة على حضارة المدن وما فيها من ترف وتكلف وعجيج . فـ " جان جاك روسو " مثلاً يؤلف الكتب عن فساد الحضارة وما في نشر العلوم والآداب من الأذى للناس . ويصيح بالناس أن عودوا إلى الطبيعة . ثم هناك " شاتوبريان " لا يري الجمال والجلال إلا في ذلك المتوحش النبيل الذي يعيش على الفطرة في بادية أمريكا ، ثم يفحص نفسه فإذا به هو نفسه ذلك " المتوحش النبيل " الذي يهوي الهروب من الحضارة . ثم هناك " برناردين سان بيير " قد اشمازت نفسه من الحضارة وتكاليقها فلم يجد مسرحاً يمثل عليه خياله من السعادة إلا في أقاصي جنوب أفريقيا حيث الطبيعة لم تزل بكرّاً وحيث سعادة الحب ووساوس الغرام تدب في الجسم مفاجئة فلا يدريها الشاب وتخطئها الفتاة لأنهما من بداوة العيش بحيث يغمرهما الجهل والسذاجة . وكلاهما أساس السعادة في رأي هذا الفسار من مكافسمة الحضارة

والنزوع إلى الطبيعة وسذاجتها ، وإلى البداوة وحريتها ، هو ردة في نفس كل إنسان ، ونحن أكثر ما نكون شعوراً بقوة هذه الردة عندما تكثر تكاليف الحضارة . ولو كان كل رجال المثل العليا من طينة هؤلاء الرهبان الذين يفرون من مواجهة الحقائق ، يتوهم فردوس لا يمكن تحقيقه ، لما تعيننا في سرد أحلامهم . فإنما نحن نعني هنا بأولئك المكافحين المهاجمين الذين يرسمون لنا بناء حضارة جديدة كاملة أو شبه كاملة غير تلك التي يعيشون فيها

وإذا عدت " طوبيات " الفلاسفة أو أحلامهم التي تخيلوا فيها من النظم ما هو أرقى مما لديهم ، لكان ثلثا هذه " الطوبيات " ينسبان إلى القرن التاسع عشر ، والثلث الباقي إلى سائر القرون . وإنما ذلك لكثرة مخترعات هذا القرن وانتشار الصناعة فيه ، واختلاف التوازن في هيئته الاجتماعية اختلالاً فادحاً واضحاً ، وظهور طبقة من الناس تستبد بالعمال وتستأثر بالريح العظيم ولا ترضخ لهم إلا باليسير الذي يقوم بكفافهم أو بأقل منه

فقد كانت الصناعة قبل ظهور الآلات في أيدي صناع يشتغلون بأيديهم. فالخذاء يشتري آلاته بأقل الأثمان ، وينتجى ناحية المدينة يفتح فيها دكاناً ، فيصنع الأحذية وبيعهها بنفسه. يفعل ذلك كله وهو راض عن نفسه وعن حكومته وعن الحضارة التي هيأت له هذا النظام . ولكن ظهرت بعد ذلك الآلات ، فسارت تصنع آلاف الأحذية في وقت قصير

وغمرت السوق ببضائعها حتى لا تكاد تتسع لما يصنعه ذلك الحذاء البسيط . فهي تدفعه إلى أن يكون عاملا فى ذلك المصنع الكبير الذى يصنع أشياء بالآلاف . وقل مثل ذلك فى سائر الصناعات . فإن الصناع الذين يصنعون بضائعهم بأيديهم قد استحالوا عمالا ، لا رأس مال لهم ، يطردهم المصنع عند تكديس بضائعه ، وينزل أجورهم إلى أحط قيمة تضمنها مزاحمة العمال بعضهم لبعض . وينتج عن ذلك كله أنه يبقى العمال فى فقر مدقع ، وأن يشرى أصحاب المصانع إثراء فاحشا ، وأن يدعو هذا التفاوت بين الحظين إلى تدمير العمال وإلى ظهور الحركات الإشتراكية . وليس غريبا أن تظهر لفظة Socialism أى الإشتراكية حوالى سنة ١٨٢٥ . وليس النظام الإشتراكي سوى " طوبى " يتمنى العمال تحقيقها فى مستقبل الأيام ، فهي الآن أمنيتهم وحلمهم . ولكن يبدو من تصفح الأحوال السياسية فى الأمم الغربية أنهم صانرون إلى تحقيق هذه الطوبى أو ما يشبهها . ومعظم الطوبويين ، أو رجال المثل العليا ، فى القرن التاسع عشرهم ، أو أكثرهم ، لهذا السبب من الإشتراكيين . فهؤلاء الإشتراكيون يرون تقدم الآلات والمقادير العظيمة التى تنتجها من البضائع فيستسلمون : لم لا تملك الأمة هذه الآلات وتصنع بها ما يكفى الناس من اللباس ؟ . ولم لا تستعمل هذه الآلات فى الزراعة ، فيتوافر للفلاح وقته ليقضى منه ما يشاء فى تربية نفسه والترفيه عنها ؟ ولم يربح المولون كل هذه الأموال التى يغلها عليهم

الحديد والنار ؟ . أو ليس من العدل أن تكون المخترعات شائعة
يستغلها كل أفراد الأمة في شخص الحكومة

وأول رؤيا نصفها من رؤى القرن التاسع عشر هي رؤيا " شارل
فورييه " وهو من زعماء الاشتراكية في فرنسا . وقد رأى فورييه فيما
يرى اليقظان أن جماعة يبلغ عددها نحو ١٦٠٠ نفس تعيش معاً ،
ويقوم أعضاؤها بجميع حاجاتهم . والأمة التي منها هذه الجماعة
مقسمة جماعات على هذا النمط ، كل منها تتكفل بحاجاتها دون
الإلتجاء إلى جماعة أخرى والإنسان في رأى فورييه شخصية مثلثة :
" فهو صناعي يبغى المزاولة بينه وبين الوسط الذي يعيش فيه بالصناعة .
وهو اجتماعي يبغى المزاولة بينه وبين الجماعة التي ينتسب إليها . وهو
ذهني يحتاج إلى كشف النواميس التي تعمل لنظام هذا الكون " وهو
لهذه الشخصية المثلثة يضع جماعته المكونة من ١٦٠٠ نفس في بقعة
مختلفة المناظر والنواحي ، فيها الجبل والنهر والغابة والسهل والمدينة
وصناعة الأهالي الأصلية هي الزراعة ، ولكن الأهالي مع ذلك
يمارسون جميع الفنون والصناعات الأخرى . إذ أن كل جماعة مستقلة
عن الأخرى

وفي وسط البقعة التي تقيم فيها الجماعة بناء : " وهو قصر كامل

(ولد فورييه سنة ١٧٧٢ وهلك سنة ١٨٣٧)

بحاجات المجتمعين ، له ثلاثة أجنحة أحدها صناعى وآخر اجتماعى
وأخر ذهنى . ففي الأول المصانع وقاعاتها ، وفى الأخير المكتبة
والمجموعات العلمية والمتاحف وقاعات الفن ونحو ذلك . أما الجناح
الإجتماعى ففي الوسط ، وهو يحتوى قاعات الطعام والأستقبال والسمرة
وفى أقصى القصر معبد المؤلفات الحسية ، وهو خاص بالرقص
والموسيقى والشعر والرسم ونحو ذلك . وفى أقصى القصر من الناحية
الأخرى معبد الإتحاد الذى يحتفل فيه بالشعائر اللاتقة بإتحاد الإنسان
بالكون . وهنا برج ومرصد به تلسكوبات للإتصال بسائر الجماعات *

وهذا البناء هو بالطبع المدينة كلها ، يعيش أهلها معاً ، لهم
مطبخ واحد . ومنذ الصغر يتعلم الأطفال كيفية الطبخ . وهم يأكلون
معاً ، وإن كان من الممكن أن يتناول كل إنسان طعامه بمفرده على عزلة
. ولكل واحد من الجماعة مقدار معلوم من الطعام والغذاء والمسكن
والمال ، يتساوى فيه مع سائر أفراد الجماعة بغض النظر عن العمل الذى
يزاوله . ثم فرق ذلك له أن يحصل على امتيازات أخرى بخوله إياها ما
له من الأسهم فى شركة هذه الجماعة . فهنا تميز بين العامل المجد
والعامل الخامل . وهنا أيضاً ترخيص بالامتلاك الفردى إلى درجة ما .
فالجماعة مساهمون ، يعيشون عيشة مشتركة يتساوون فيها كلهم ، ثم
يمتاز منهم الخامل على أسهم أكثر من غيره . ولكن هذا الامتياز قليل

الأثر ، لأن الريح فى النهاية ، بعد الاتفاق على هذه العيشة ، يكون صغيراً لا يؤبه به فهذا ، كما يرى القارىء ، شبه توفيق بين مبدأى الاشتراكية والانفرادية

والصناعات تمارس على نظام واسع اقتصاداً فى النفقة . كل عامل يختص بجزء من العمل حتى ينجز الكثير منه فى القليل من الوقت . والجماعة تتجر مجتمعة كأنها هيئة واحدة ، فتبيع للجماعات الأخرى ما هى فى غنى عنه ، وتوزع الأرباح على أعضائها بنسبة مالهم من الأسهم فيها على نحو ما تفعل الجمعيات التعاونية الآن والمرأة فى هذا النظام حرة ، تشغيل كما يشتغل الرجال . ويرى فوربيه أن الزواج لا يوافق هذه الحرية . ففى البناء مكان لتربية الأطفال الرضع . وللجماعة جيش لا يعبأ للحرب ، وإنما يسير لمكافحة الطبيعة : لشق الأنهار وزرع الغابات وبناء الجسور وتخفيف الأرض النازة ونحو ذلك . ويرى فوربيه فى ذلك منصرفاً لنشاط الشباب يقوم مقام الحرب ويختلف "روبرت أوين" عن بعض من ذكرناهم من حيث أنه لم يستسلم للخيال كل الاستسلام هوأنه قصد إلى إيجاد هيئة اجتماعية تيسر إقامتها . فقد عاش هو نفسه بين عمال ، وأدار المصانع ، وعرف تلك العلاقة بين الآلة والإنسان وإمكان جعلها وسيلة للإصلاح أو للإفساد .

(ولد أوين سنة ١٧٧١ ومات سنة ١٨٥٨)

ولم يكتف بالكتابة والشرح بل عمد إلى العمل ، فأسس جملة مصانع أجراها وفق آرائه بالاشتراك مع " بنتام " المشرع الشهير . وأنتهت تجارة العملية هذه بالاختفاق

ولكن أوين ، وكذلك المفكر الفرنسي " سان سيمون " كلاهما ، دعا ، أو بالأحرى نحا ، نحو الأفكار الاشتراكية التي نعرفها الآن . وكان حاصل دعوة سان سيمون أن تخرج التجارة ، أو المعاملة بين السيد والعامل ، بالأخلاق . فلا يعتمد الإنسان إلى أن يربح كل ما يمكن ربحه بل يقنع بربح معتدل ، ولا يصنع إلا ما فيه المصلحة العامة . وهو بين هذا وذلك يرى نفسه مضطراً إلى أن يرى مساوىء الامتلاك الفردى للعقارات المغلة ، فينحو على الرغم منه إلى التفكير الاشتراكى . وأما روبرت أوين ، وهو واضع لفظة " الاشتراكية " المستعملة الآن ، فتدلنا أعماله على الأسس التي قام عليها التفكير الاشتراكى فى القرون التاسع عشر

كان أوين رجلاً غنياً له مصنع فى " منشستر " به نحو خمسمائة عامل يغزلون القطن . وما زال دائماً فى عمله حتى اتسعت أعماله وراج غزله وزادت ثروته . ولكن الأثراء لم يكن همه الأكبر لأنه كان يهتم بأحوال العمال والترفيه عنهم . فإنه عمد عندما أثرى إلى تأسيس مصنع كبير فى نيولانارك بانجلترا كان به ٣٠٠٠ عامل . وكان بناء المصنع مستوفياً كافة شروط الصحة والجمال . وصح أن استخدام

الصبيان كان جائزا فى ذلك الوقت ، وكانت أجورهم قليلة ، فإنه رفض استخدامهم . وكان يخفض ساعات العمل إلى أقل مقدار ممكن ويزيد الأجور إلى أعلى مقدار ، وكان يمنح أجوراً وقت العطلة الإجبارية التى تنشأ من الكساد . وكان فى أوقات فراغه يؤلف فى إصلاح المجتمع . ومن أسماء هذه المؤلفات يمكن للقارىء أن يقف على شيء من أفكاره . فمنها مقالات عن " تكون الاخلاق الإنسانية " و " رأى جديد فى المجتمع " الخ . الخ . وكانت كتاباته هذه سبباً للفت الأنظار إلى الأحوال السيئة التى يعيش فيها العمال ، حيث بعثت البرلمان البريطانى إلى سن تشريع خاص بحماية الأطفال من العمل فى المصانع

وذاعت شهرة أوين ، فكان " بنتام " المشرع الإنجليزى الشهير من أصدقاء ، وله أسهم فى مصانعه . وزاره الفرندوق نقولا الذى صار بعد ذلك قيصراً على روسيا . وكان والد الملكة فيكتوريا صديقاً له ويكثر من زيارته . وبلغت شهرته الولايات المتحدة ، فدعاه بعضهم إلى إنشاء مصنع يشبه مصنع نيولانارك . فسافر إليها وأسس جملة مصانع ، ولكن تراكم الأعمال عليه لم يتح له النجاح فيها

وعاد أوين إلى إنجلترا فأرصد نفسه للتفكير الاشتراكى ، وحارب الامتلاك الفردى ، ونسب إليه جميع الشرور الفاشية فى زمنه . ورأى المسئولون أن الجمهور أخذ يحبه ، والصحف تبسط صدرها لتكتب عنه وله ، فعمدوا إلى مركز حساس وهو الدين ، كما يفعل الرجعيون عندنا

مع المجددين ، فما زالوا به يتهمونه بالكفر والالحاد حتى صد الناس عنه
أراد أوين أن يحصر الربح فى العامل الذى ينتج السلعة ، فلا
يتجاوزهُ إلى التاجر أو الوسيط أو صاحب المصنع . و رأى أن أمثل الطرق
لذلك ، ولتحقيق الاشتراكية ، أن يعمد العمال إلى تأسيس المصانع ،
لكل منهم مقدار من الأسهم . وأن يفتحوا المحوانيت لبيع مصنوعاتهم
بأنفسهم ، ويشترى المادة الخام للمصنع ثم يبيعونها مصنوعة للجمهور :
" فيتفادون تلك الأرباح التى يحصل عليها صاحب المصنع أو الوسيط من
عرق جبينهم " . وقد عملت هذه الفكرة على رفع شأن العامل ، وكانت
بداية الجمعيات التعاونية فى العالم . ومن أغرب ما فكر فيه أوين
إيجاد بنكوت ترقم عليه القيمة بساعات العمل وليس بالنقود المتداولة .
فقد رأى أن قيمة النقود تختلف ، فتزيد أو تنقص تبعاً لغلاء
القروش . فالجنيه الذى نشتري به الآن مائة رغيف قد لا نشتري به فى
الغد سوى ٩٥ رغيفاً وقد نشتري به ١٠٥ أرغفة . فأخترع بنكوتاً يبين
زمن العمل بالساعات . والساعة لا تتغير فى أى وقت . وقد كتب على
هذا البنكوت ، الذى نشره بأسمه ، هذه العبارة : سلم حامله بضائع بدلا
من قيمة عشرين ساعة بأمر روبرت أوين

* * *

ولنتقل الآن إلى خيالى مشهور هو "جيمس بكنجهام" عاش أكثر
(ولد بكنجهام سنة ١٧٨٦ ومات سنة ١٨٥٥)

أيامه في الشرق . وكان يحرر عدة صحف إنجليزية في الهند ، وكان مع ذلك جراحة أفاق رحالة لا يستقر . فزار عدة أقطار وهو ينظر ويتبصر ، ثم وضع كتاباً عن " الشرور الأهلية والعلاجية العملية وترسيم لبلدة أنموذجية " وظهر هذا الكتاب سنة الثورات التي شملت أوروبا كلها تقريباً وهي سنة ١٨٤٨ . وفي هذا ما يدلنا على البواعث التي تبعث هذه الأخيلة في عقول المفكرين

وما هي هذه البلدة الأنموذجية ؟ . هي بلدة تدعى " فكتوريا " يؤسسها أفراد مشتركون على طريقة الشركة المساهمة المحدودة المسئولية . وتحتوى هذه البلدة على جميع التحسينات الجديدة : " من حيث الصنع والترسيم وصرف المجارى والتهوية والبناء والماء والضوء وسائر المتعاطات " . ومساحتها ميل مربع . وعدد سكانها لا يزيد على عشرة آلاف نفس . وعلى طرف المدينة تؤسس المصانع ، ومصنوعاتها ملك للشركة لا للأفراد الذين يصنعونها . وحول المدينة ضيعة تبلغ عشرة آلاف فدان هي ملك للشركة أيضاً ، كما أن البيوت وسائر العقارات لا يملكها الأفراد وإنما تملكها الشركة . وهذه الشركة تستغل كل هذه الأشياء وتوزع الأرباح على الأفراد بنسبة ما لهم من أسهم فيها ، ولا يجوز الإشتراك فيها لأحد ما لم يكتب على الأقل بعشرين سهماً ، ويثبت حسن نيته للمدينة ، ويكتب على نفسه عهداً بشرط

على نفسه فيه الإمتناع عن تناول الخمسور أو العقاقير أو التبغ
ويكون بالمدينة مفاصل ومطابخ ومطاعم عمومية ، ومكان
عمومى أيضاً لتربية الأطفال الرضع ، ويكون التعالج بالمجان، كما يجرى
فى الجيش، ولن يكون بالمدينة قضاة ومحاكم ، وإنما تكون شرائع
مسنونة يتعهد الأهالى بالسير عليها . فإذا حدث اختلاف أختار
المتخالفان حكماً ليفصل فى خلافهم . والأهالى يتعهدون ، فى جملة ما
يتعهدون به ، عدم الشكوى إلى المحاكم والرضا بما يحكم به الحكم
المختار . وهذه التعهدات ضرورية لأن مدينة فكتوريا يراد إقامتها فى
وسط أى دولة ، فلا بد لذلك من هذه التعهدات حتى تعيش مستقلة عما
حولها فى إدارتها وقضائها

والمشروع الإنجليزى أينما نظرت إليه . فهو عملى ، يمكن إقامته
فى أى مكان ، فلا يجبر الناس عليه ولا هو فى حاجة إلى أن تجربته
أمة بأسرها . إذ يكفى لنجاح المشروع أن يقوم به عشرة آلاف نفس .
ويقول يكتنجهام أنه إذا تأسست مثل هذه الشركة ، ونجحت ، سارت
سائر البلاد على طريقته . وهو فى لبه ، كما يرى القارىء ، شركة
تعاون كبيرة تباع الغلات بنفسها ثم تقسم الأرباح على مساهميه

من أحلام الاشتراكية

أحلام القون التاسع عشر كله ، وما يليه من ربع القرن العشرين ، هي كلها أحلام الآلات والعمال . وكلها تتجه بالطبع وجهة اشتراكية شأن جميع الأحلام الماضية ، ولكنها تمتاز منها بالعناية بالعمال ويجعل الآلات أساساً للهيئة الاجتماعية . وهاتان الميزتان ، كلتاهما ، لم يكن افلاطون يعرفهما . فهو كما يذكر القارىء حذف من ذهنه مسألة الصناع والعمال ، ولم يبال بهم إلا أقل المبالاة . أما الآلات في زمنه فلم تكن لها من الخطورة والأثر في المجتمع ما يدعو إلى التفكير في شأنها . ولكن كل هذه الأحوال قد تغيرت في القرن التاسع عشر ، إذ هو يشترك وقرننا في أنه عصر العمال وعصر الآلات معا

ومن أصحاب الأحلام المحدودين في القرن التاسع عشر " اتين كابييه" الذى ولد سنة الثورة الفرنسية : ١٧٨٨ ، وتوفي عند بداية امبراطورية نابليون الثالث : سنة ١٨٥٦ . فرأى في صباه أحد مرده التاريخ ، نابليون الكبير ، وعبر القرن التاسع عشر بثوراته الكبرى سنة ١٨٤٨ ومخترعاته العديدة التى هي في الحقيقة أبعد أثراً من

الثورات فى النظم الإجتماعية. وميدان الحلم " إيكاربه " وهى إقليم مقسم على طريقة الثورة الفرنسية الى أقسام اعشارية ، فيه مائة مديرية تستوى كلها فى المساحة وعدد السكان . وكل هذه المديريات ينقسم الى عشرة مراكز متساوية أيضاً لا يراعى كايه فى ذلك اختلاى السهل من الجبل ، أو الوادى الجذب من الوادى الخصب ، فإنما هو يقسم مملكته كأنها رسم على الورق . ينزع هذه النزعة بقوة الثورة الفرنسية التى أسست الطريقة المترية . وفى وسط " إيكاربه " تقوم مدينة " إيكاره " عاصمتها . وهى أشبه شىء بباريس ، لها نهرا أيضاً كما لباريس نهر السين . والمدينة مستديرة ، يشقها نهرا نصفين متساويين ، ويقوم على الشطين جداران مشيدان من الحجر لمنع انهيارهما . وقد كرى النهر حتى بعد قعره وحتى صارت بواخر الاقيانوسات قمخر فيه وتنقل البضائع الى إيكاره ومنها . وبها خمسون شارعاً توازى النهر وخمسون أخرى تقطعه . (وقد خانتته الطريقة العشرية هنا ، لأن المدينة كما سبق فذكرنا مستديرة فكيف تتفق استدارتها ونظام هذه الشوارع ؟) والمدينة مقسمة الى ٦٠ حياً كل منها يحتوى على مدرسة ومستشفى ومعبد وحوانيت . والمدينة مبنية عمارات، بكل عمارة ١٥ منزلاً تحيط ببستان عمومى

والقرى فى إقليم إيكاربه تشبه المدينة من حيث التخطيط ، والمؤلف مهوم بالعناية بالصحة وبالرفاهية فى الشارع ، فمماشى

الناس الى جانبى الشوارع مظلة بالزجاج، كذلك المحطات (أليست هي الآن كذلك؟) ، أما الاصطبلات والمجازر والمستشفيات ، فتقع خارج القرية أو المدينة . وتقوم المصانع والمخازن على النهر أو إلى السكك الحديدية لتسهيل النقل

والآن لننظر فى النظام السائد الذى يجرى عليه السكان ..

كان اتين كابية مشبعاً بروح الزمن الذى عاش فيه ، وكان ناهليون يشمخ فيه كالمارد ، ولذلك بدأ كابية حلمه بأن تخيل " إيكار " أميراً مستبداً يملئ على الناس نظام حكومته فلا يخالفه أحد . وخبر ما يوضع هذا النظام هو وصف حالة أحد السكان

يبدأ الايكارى يومه فى الساعة السادسة ، فيتناول فطوره فى المطعم أو فى المصنع . وقد قررت ألوان الفطور لجنة من العلماء ، نظرت فى قرارها إلى صحة المفطرين . وكأنى بك تشك فى هذا الطعام ، وهل يساغ على الرغم من قرار العلماء ، وقد شك قبلك كابية وأذن للسكان بأن يفطروا كما شاؤا وأينما شاؤا، وإذا أفطر الايكارى قصد إلى عمله ، فيشتغل فى الصيف ٧ ساعات وفى الشتاء ستاً . (والمؤلف من أهل البلاد الباردة يرتاح إلى العمل فى الصيف على عكس ما هو حاصل عندنا) . وجميع أهالى ايكارية يعملون هذا العدد من الساعات بلا إمتياز لأحد على آخر

والحكومة هي صاحبة المصانع ، وهي التي تنظم أوقات العمل ، وهي التي تملك الخيول والمركبات التي تنقل البضائع . فهي اشتراكية لا غش فيها ، ومن هنا كانت " رحلة إلى إيكاريه " من الكتب التي تداولها العمال كثيراً منذ طبعته الأولى سنة ١٨٤٥ . وكان هذا الكتاب ذا أثر في تشجيع العمال في أوروبا بالفكر الاشتراكي

وعندما يفرغ الإيكاري من عمله يخلع ملابسه ، تلك الملابس التي قررتها " لجنة الملابس " على نحو ما تقرر إدارة الجيش ملابس الجنود . والواقع أن الإيكاريين جنود قد عبثوا للصناعة ، يجرى عليهم نظام الجيش في جميع شؤونهم

وقبل أن يولد الإيكاري تتلقى أمه دروساً في واجبات الأمومة . فإذا بلغ الخامسة تناولته يد الحكومة بالتربية طبقاً لبرنامج يتفق فيه جميع شباب الإيكاريين إلى سنة الثامنة عشر للذكور والسابعة عشرة للإناث . وعندئذ يسير كل شاب أو شابة في دراسة خاصة توافق الصناعة التي سيتخذها فيما بعد . وهذه الصناعات محدودة معينة ترأسها كلها لجنة تحصى عدد الصانع في جميع المصانع كل عام ، وتحصى مقدار البضائع المخزونة ، ثم تعين حاجتها إلى عدد الصانع المطلوبين في كل صناعة، وتأخذ من متخرجي المدارس من تحتاج إليهم من الفتيان والفتيات . والرجل يحال على المعاش إذا بلغ الخامسة والستين والمرأة إذا بلغت الخمسين

ولا يمكن الايكارى أن يتزوج قبل بلوغه العشرين ، أما الفتاة
فيمكنها ذلك عند بلوغها الثامنة عشرة . أما الحكومة فكانت فى
نشاطها استبدادية ، لأن كابيه تخيل " ايكار " شخصاً له إدارة نابليون
وسلطانه ويعمل للاصلاح ، ولكن بعد موته صارت نيابية لكل مديرية
مجلسها وللاقليم كله مجلس منتخب من هذه المجالس وله هيئته
التنفيذية التى تدير البلاد . والحكومة تصدر الصحف ، ولكن هذه
الصحف مقصورة على ايراد الأخبار دون ارتياء الآراء ، لا تكون
منها ذريعة لتثييت قدم الحكومة

سنة ٢٠٠٠

كان " أوين " و " كاييه " كلاهما اشتراكي ، يتخيل على بقطة ،
ويحلم بتدبير ، ويقصد الى التطبيق والعمل . وقد أنشأ كل منهما
مستعمرة لتجربة نظرياتهما وتحقيق خيالههما في إنجلترا وأمريكا .
وأخفق كلاهما

ولكن " ادوارد بلامى " لم يكن مثلهما . فقد كانا كلاهما
مصلحين يدرسان العمران وأحوال العمال والصناعات ، أما بلامى فكان
أديباً أميركياً أعتنق الإشتراكية فوضع قصته " نظرة الى الوراثة " يصف
فيها العالم كما يتخيله سنة ٢٠٠٠ . وينتقد أحوالنا الراهنة فى ضوء
تلك السنة البعيدة . وكل ذلك بلهجة أديب قد حذق فن القصص ،
ولذلك لا تزال قصته ذائعة بين الجمهور الإنجليزى والأمريكى وخاصة
فى أوساط العمال

وهو يبدأ قصته بأن أحداً نومه تنوعاً مغناطيسياً فلم يستيقظ
إلا فى سنة ٢٠٠٠ . وكسنت له قصة غرام مع آنسة سنسنة ١٨٨٧ ،

(ولد بلامى سنة ١٨٥٠ ومات سنة ١٨٩٨)

وهو يصل غرامه القديم بحفيدتها سنة ٢٠٠٠ ، بما لا شأن لنا فى
تفصيله لأن غايتنا هو وصف ما وضعه لنا من الترسيمات للإصلاح
ولم يصف بلامى شيئاً عظيماً إلا من حيث الحجم ، أما من حيث
المتانة فإن بناءه أرك بناء وأكثره تداعياً . فإذا أنت قرأت القصة سنا
بك أدها خيال راق ، ورفعك قصدها العالى الى أسى العواطف
ولكنك إذا وقفت وتأملت شعرت كأن بلامى يصف لك مدينة
كبيرة من ورق . وأن خيال أفلاطون ، على ما به من سذاجة ، أمتن
دعائم وأوثق نظاماً من هذا الحلم الذى يراه بلامى فى ختام القرن
العشرين . ولكنك مع ذلك تشعر بتلك الدوافع الشريفة التى بعثت
بلامى على أن يتخيل هذا الخيال ، فهو يرغب فى أن يرى هيئة
اجتماعية يقعد فيها الفرد الى المائدة لكى ينعم بالطعام الفاخر ولا يرى
إنساناً واقفاً قريباً منه يحسده على نصيبه ويتضور جوعاً . ويرغب
بلامى فى أن يرى التربية عامة والتعليم شاملاً للجميع ، لأن للجاهل
منظراً كريهاً ينعكس أثره على جميع أفراد الأمة الذين يستوقرون من
جهله ما لا قبل لهم بحمله . ويرغب فى أن يحمل على عاتقه شيئاً من
ذلك العبء الذى نخس به طائفة الزبالين والكناسين وغيرهم ، لأن مثل
هذه الأعمال أشق وأقذر من أن تحملها طائفة وحدها . ويرغب أيضاً
فى أن يستوى الناس فى فرص الإثراء بحيث لا تكون الشروات من
الصدف التى يصيبها بعض الناس ويخطئها البعض الآخر . وهو فوق

كل ذلك أديب يرغب فى ألا يمتهن الحب ، وألا تقف اعتبارات الجزار أو البقال أو الخياط حجر عثرة فى سبيل الحب المشر بين فتى وفتاة يحجمان عن الزواج لأن الفتى لا يستطيع شراء كذا أو كذا مما تحتاج إليه الزوجة . ويرغب فى حمل الناس على الحياة الساذجة ، وكفهم عن التكلف والتصنع ، فيجب أن تصارح الفتاة حبيبها بأنها تحبه ، ويجب أن تلبس ما تشاء من اللباس البسيط ، وأن تفضى إلى الناس بآرائها بدون أن تتقيد بعرف حائر أو حياء متكلف

وكل هذه الرغبات حسنة فى ذاتها ، ولكن بلامى يخطئ عندما يريد تحقيقها فى خياله، وهنا يجب أن نقف هنيهة لكى نتأمل فى الفرق بين خيال أفلاطون وبين أخيلة هؤلاء المحالين من أبناء القرن التاسع عشر فإن أفلاطون لم يعن قليلا أو كثيرا بالعمال ، بل تركهم على ما كانوا عليه . ولكن جميع فلاسفة القرن الماضى لم يفكروا فى إصلاح للمجتمع إلا وكانت مسألة العمال هى المقدمة على كل المسائل . وعبرة ذلك هى أن عدد العمال قد كثر فى هذا القرن وصاروا هم جمهرة الأمة وكثرتها، وهذا بخلاف الهيئات الاجتماعية القديمة . وعلة ذلك تفسى الآلات ، وتركز الثروات فى أيد قليلة ، وانهزام المالك الصغير أمام المالك الكبير . وهذا هو شأن بلامى ، فإنه يبدأ " طوباء " أو مثله الأعلى للهيئة الاجتماعية بحل مسألة العمل . فهو يقول : ان أهالى الولايات المتحدة كانوا فى القرن التاسع عشر قد تدرروا

على تنظيم أعمالهم بواسطة شركات كبرى ، فما أن يختم هذا القرن حتى اندمجت هذه الشركات فى إدارة واحدة وصارت قسما من الحكومة وصار عمال هذه الشركات جيشاً كبيراً يتألف من شباب الأمة . وهم يشتغلون كالجيش ، تسيطر عليه الحكومة ، ويجرى عليه نظامها ، ويتناول منها أجوره . والعمل فى هذا الجيش إلزامى ، كما هو فى الجيوش العسكرية الحاضرة ، إذا تخرج الشاب من الكلية أنتظم فيه ثلاث سنوات يؤدى فيها الأعمال الشاقة الوضيعة .

فإذا تخرج هذه المدة تقدم للتخصيص فى إحدى الصناعات أو الفنون التى تعلن الحكومة عن حاجتها الى عمال لها . فيبقى فى تعلم هذه الصناعة التى ينتقياها . وبعد ذلك يصير جندياً فى جيش العمال العظيم الذى تديره الحكومة . ركل عامل مهما كان عمله يتناول أجراً يستوى فيه هو وغيره من العمال قدره ٨٠٠ جنيه فى العام . لا يمتاز فى ذلك عامل لنشاطه عن عامل آخر لكسله ، وكل من لا يؤدى واجبه يماقب . ولما كانت الأعمال تختلف من حيث الصعوبة والسهولة ، فإن الحكومة تحتز من إقبال الناس على الأعمال السهلة ، وتجنبهم الصعوبة بتقصير مدة العامل فى هذه وإطالتها فى تلك . والأجر مع ذلك لا يختلف فى كلا العاملين . ويجوز للعامل أن يستقيل ويحصل على معاش ٤٠٠ جنيه فى العام إذا بلسغ الثالثة والثلاثين أو أن يبقى فى عمله الى الخامسة والاربعين ويحصل عندئذ على الاستقالة

بمعايش كامل قدره ٨٠٠ جنيه

ولكن فى هذا الجيش ثغرة ، فإنه يلزم جميع الشباب بالعمل فيه ما عدا أولئك الذين ينتمون الى حرفة المؤلف . فإن التأليف والاختراع خارجان عن هذا النظام . ويجوز للعالم أو المكتشف أو الأديب أن يمارس صناعته حراً كما هو الحال الآن ويكتسب من الجمهور كما يشاء ولا بد أن يلامى ، وهو مؤلف قصصى ، قد عرف من اسرار صناعته ما يدعو الى عدم الثقة بالحكومة . لأن الحكومة بطبيعة وجودها تميل إلى الجمود وبقاء الحال الحاضرة ، والمخترع والمكتشف والأديب كلهم تقتضى صناعتهم شيئاً من الخروج على المألوف . وهم لذلك لا يجدون في الحكومة بيئة صالحة نركو فيها أذهانهم

ولنرجع الآن إلى جيش العمال فنقول أن جميع الأعمال من إنتاج واستنفاد في حكومة سنة ٢٠٠٠ قد قسمت إلى عشر مصالح تضم إلى حظيرتها طائفة من الصناعات المتجانسة . ولكل صناعة قلم خاص ، به السجلات الخاصة بها ، وما يتوافر من الأجور فيها يشول إلى الآلات والأبنية التي تحتاج إليها هذه الصناعة. وهذا القلم هو الذي يقرر أثمان السلع التي يصنعها ، ولكنه لا يمكنه أن يستبد لأن قانون الدولة يحظر الزيادة إلا بنسبة معينة لما أنفق على السلعة

ويرأس جيش العمال رئيس الولايات المتحدة الذي ينتخبه انتخاباً مباشراً جميع السكان ، بعد استثناء جيش العمال ، وذلك لمنع استبداد

الجيش بالأهالي

ولكن يبقى فرض آخر وهو : هل يرضي هذا الجيش علي كشرته بأن يعين له رئيس وليس له صوت في تعيينه ، وهل يعمل هذا الرئيس شيئاً لزيادة رفاهية العمال وهو منتخب بهذه الكيفية ؟

هناك شك في أنه يمكن إدارة جيش كامل ليقوم بجميع الأعمال في أمة كبيرة تبلغ نحو مليون نفس . لأن هذه الاشتراكية الحكومية بعيدة عن أن تتحقق في جميع الصناعات . ولنا في ذلك نكر أن بعض الصناعات تنجح عن سبيل الاشتراكية الحكومية ، بل الاشتراكية البيروقراطية ، أكثر مما تنجح في يد الأفراد ، كما نرى في السكك الحديدية المصرية . ولكن هناك من الصناعات ما لا يمكن أن تنجح إلا إذا عولج علي مقاييس صغيرة ، وفي إدارات محدودة المساحة . ولكل بقعة شخصية تظهر في صناعاتها ، ولكل بيئة طابعها علي الصانع الذي يمارس إحدى صناعاتها . فالإشتراكية الحكومية لا تنجح في كل صناعة ، ولهذا نشأ بين الإشتراكيين الرأي القائل بـ " الإشتراكية البلدية " التي تقوم البلديات فيها بما يقوم به الأفراد ، مستقلة في ذلك عن الحكومة

ولنلق نظرة الآن علي الحياة الإجتماعية كما تخيلها بلامي . فنحن نجد في " طوباء " طائفة كبيرة جدا من المتقاعدين الذين يعيشون عيشة الترف ، ويجوبون آفاق العالم ، بفضل المعاش الكبير الذي يتناولونه ،

أو يمارسون إحدى الصناعات التي يهونها أو إحدى الرياضيات . وهنا
يعني بلامي عناية كبيرة بالرياضة ، إذ يقول : " إذا كان الخبز أول
حاجات الحياة ، فإن الرياضة هي الحاجة الثانية "

ونجد طائفة كبيرة أخرى هي " جيش العمال " الذي يقضي فيه
الفرد ٢٤ عاما وهو مرغم على العمل إرغاما إذا تهاون فيه عوقب .
وهذا في اعتقادنا ركن متداع من بناء الهيئة الإجتماعية عند بلامي ،
فإن المدة أطول من أن يتحملها إنسان بالرضا

ولكل عائلة مسكنها . ولكنها في غنى عن الطبخ ، لأن لكل
طائفة ، أو جزء من حي من المدينة ، مطعم كبير فيه غرفة خاصة بكل
عائلة . وفي المنزل أداة التليفون التي لا تستعمل للتخاطب فقط ، بل
لسماع الأغاني . لأن لها بوقا يضخم الصوت ، فتتعد العائلة في ساعة
معينة ونستمع لمخطب الوعاظ والسياسة وأناشيد المغنيين . وقد لمح
بلامي شيئا من الراديو الذي يستعمل الآن في كل مكان في أوروبا
عندما خطر بباله هذا الخاطر

ثلاثة من الإنجليز

كلنا يعرف ذلك الشاعر الألماني الجسم الفرنسي الذهن " هنريخ هينه " كيف حكى عن نفسه أنه بدأ بالتحمس للديمقراطية ، وأندفع للدفاع عنها ، حتى إذا رأى أن الديمقراطية هي حكم الدهماء أو العامة عاد فأنكف عن دفاعه وتقلص في نفسه وأعتاض من حماسه السابقة فتوراً أو خوفاً

ولقد كان القرن الماضى عصر ظهور الديمقراطيات ، وهو أيضاً عصر فشل هذه الديمقراطية . فقد كان الظن أولاً أنه إذا صار الحكم للأمة أنتفى الاستبداد وزال الظلم ، ولكن ظهر من تجارب هذا القرن أن كثرة الأمة إذا أستوفت تبعات الحكم لم تضطلع دائماً بها . لهذا جنح أبناء القرن العشرين إلى التفكير فى إيجاد " آلهة " للحكم ، ولن تنزل هذه الآلهة من السماء وإنما هى تستولد من الانسان . على نحو ما حلم افلاطون بإيجاد طبقة من الحكام تقف نفسها على النظر فى مصالح المدينة دون أن تحتاج إلى المبالاة بمصالحها ودون أن يكون لأفرادها عائلات أو عقارات تشغلهم

وكما كان القرن الماضى عصر ظهور الجمهوريات ، كان أيضاً عصر ظهور نظرية التطور التى أخذت منذ منتصفه تملك على العقول مسالك التفكير وتصيغ النظريات والأحلام والترسيمات العمرانية بصيغتها . وهذه النظرية تتلخص من الوجهة العمرانية فى أنه يمكن أن يرتقى الإنسان حتى يصير إلهاً ، أو سبرماناً ، كما أرتقى الانسان فى الماضى من حيوانات أدنى منه . وهذه النظرية ، من حيث عدد الداعين إليها ، واشراب النفوس بها ، إنجليزية . ولذلك ليس ما يدعو إلى أن نستغرب أن ثلاثة من كبار مفكرى الإنجليز قد حلموا بإيجاد انتخاب صناعى يؤدى إلى وجود طبقة راقية من الناس ، رلا يكون رقيها مع ذلك رقياً فى أحوال الوسط الذى تعيش فيه هذه الطبقة بل يكون فى أجسامها وأذهانها

هكذا حلم " شو " . ولكننا سنضطر إلى تركه لأنه لم يؤلف طوبى كاملة وإنما ألقى جزافاً عدة مقترحات . وهكذا حلم " ولز " و " هدسون " وكلاهما مشبع الذهن بنظرية التطور . فقد بدأ ولز حياته الأدبية بتأليف كتاب عن تشريح الأدب ، وهو الآن يؤلف عن الآلهة تخرج من جسم الانسان نقية طاهرة من أدران الحيوان . أما هدسون فقد استأنف حياة جديدة للأدب الإنجليزى بأن فتح له باب الطبيعة على مصراعيه . فهو أديب من عشيرة الأدباء الجديدة التى ستكثر فى المستقبل ويتناول أديبها درس العلوم كأنها فن من فنون الأدب ، بل كأنها الأدب كله . فهو

يكتب لك عن القط والأسد والغراب والجبال والأنهار والإنسان وسائر
ذلك الملكوت العظيم الذي حرمنا منه أدباء العرب بتأليف الكلام
استحساناً للجرس اللفظي ، وليريق الكنايات والاستعارات

ولكن قبل أن نصف " طوبى " كل من ولز وهudson يجب أن
نلقى نظرة سريعة على طوبى أخرى من الطوبيات التي تولدت من القرن
التاسع عشر ، نعى بها طوبى " موريس " لأنها أشبه بالقرن التاسع
عشر منها بالقرن العشرين . وقد كان موريس اشتراكياً فذهب بهذا
المذهب لبواعث فنية فإنه وجد أن النظام الاقتصادي الحاضر ، بما فيه
من مزاحمة شديدة ، يبعث الصانع على أن يصنع أرذل المصنوعات
وأسخفها لكي يروجها في السوق . وأن صاحب العمل يستغل عماله
إلى أقصى حد فيعملون ساعات طويلة ويتناولون أجوراً قليلة ويعيشون
لذلك أضنك عيشة وأزراها . وكان هو نفسه سرى الذوق عصامي
النزعة ، يلبس القميص الحريري ويصنع التزاويق المذهبة والحروف الملمعة
لأغلفة الكتب ، فكانت نزعته إلى الاشتراكية نزعة الرجل البار الذي
زكت نفسه وسخت حتى يريد أن يرى في مدينته ما يراه في بيته من
جمال ولمعة وسرور . ويحب أن يرى في سائر البشر ما يراه في نفسه
من ثقافة وصحة . يلبسون ما يلبسه من حرير ، ويعيشون في رفاهية
بل في ترف . ومثل هذه النزعة تهى الذهن لترسيم الرؤى الجميلة لولا
ما يشرب عقل الاشتراكي من القناعة بالاشتراكية والرضا بآلامها

ويبدأ وليم موريس حلمه بأن يصف طويلاً بأنها جاءت عقب ثورات تطهرت فيها مما كان يلوث القرن التاسع عشر . فهو يرى ناساً يجمعون النقود ، كما تجمع التحف والعاديات ، لا للتعامل . ويرى النساء في صحة وعافية يخالفن فيها نساء القرن الماضي اللواتي كانت تنطبع عليهن آثار البطالة أو الجهد من ترهل أو نحول . والمعيشة ساذجة لأن الناس قد استغنوا عن جميع العروض التي كانوا يحتاجون إليها سابقاً للمنافسة والمباهاة لا للحاجة الحقة

وهم لذلك يعملون بلا كدح ، لأن حاجاتهم قد قلت حتى صار القليل من العمل يكفي لسداده . وقد عادوا مع ميلهم إلى اتقان العمل إلى الصناعات اليدوية . وليس معنى هذا أنهم استغنوا عن الآلات ، ولكنهم عرفوا أن القماش المنسوج باليد على مهل خير من ذلك المنسوج بالآلة ، إذ هو أمتن، وعليه من شخصية صانعه طابع خاص . وقل مثل ذلك في عدة كبير آخر من الصناعات . ثم أن الصانع الذي يعمل سلعة ما بيديه ، يشرع فيها من البداية ، ويتم أجزاءها قطعة بعد قطعة حتى تتم ، يرى في عمله من اللذة ما ترى الأم في تربية ابنها أو ما يرى المؤلف في تأليف كتاب . أي أنه يشعر في نفسه بلذة الخالق للشيء الجديد . بخلاف ما نرى في مصانعنا الكبرى الآن حيث يختص عامل بسجزة من العمل لا يتصدها ، يصنعه مكرهاً ،

(ولد وليم موريس سنة ١٨٣٤ ومات سنة ١٨٦٩)

ولا يقبل عليه إلا بمقدار ما يجذبه الأجر

ثم أن السذاجة التي اقتضت الرجوع الى الصناعات البدوية ،
والى تقليل الحاجات ، قد اقتضت أيضاً الغاء المدن الكبيرة والاستغناء
عن المركبات والقطرات العظيمة . لأن كل بلدة تستنفذ مما تنتج كل ما
تحتاج إليه . ولم يبق من أطلال لندن العظيمة سوى بناء البرلمان الذي
صار الآن مخزناً لروث البهائم . والعامل قليل العمل ، ولكنه يشتغل ،
بوحى الفن . فهو لا يصنع السلع للتجارة ولكنه يشدق ويوجد فيها
تجويد صاحب الفن الملهم . ونقول بعبارة أخرى أن " توماس مور "
تخيل مثله الأعلى فى رجال كلهم عالم أو باحث أو طالب علم . أما
"وليم موريس" فبأنه تخيلهم رجال فن يقضون أكثر وقتهم فى تجميل
مدنهم والتذوق فى تشييد منازلهم وصنع تماثيلهم وتحفهم

وليس فى هذه الهيئة الاجتماعية حكومة سياسية أو إدارية من
أى نوع كانت ، وليس هناك قضاء . ولكن ليس معنى ذلك أنه ليس
بين هؤلاء الناس من لا يغضب أو يحقد ، ومن لا ينتهى به الغضب
والحقد إلى ارتكاب الجرائم . ففيهم من يفعل ذلك ، ولكنه لا يعاقب بل
يترك لضميره وللعار الذى يلصق به أمام رأى العام . والجرائم قليلة ،
لأن الخير وفير ، فأنجلتها كلها ليس فيها سوى نحو خمسة ملايين نفس
بدلاً من ثلاثين مليوناً يسكنونها الآن . وإذا قل السكان ، وكثرت
الخيرات، انتفى شيء كثير من أسباب النزاع بين الناس . وعندئذ لا

يحتاجون إلى الاستباق إلى المصانع الكبرى والتزام على الأعمال كما
يجرى بيننا الآن

ويرى القارىء من هذه العجالة أن " موريس " يسرف فى حسن
الظن بالناس ، وأن الشيوعية فيه تغلب على الاشتراكية . فهو لا يبالى
بإيجاد قواعد للنظام ، ولا يفكر فى الحكومة . وعنده أن البلدة
الصغيرة قادرة على إدارة جميع شؤونها بنفسها . وإذا نحن فرضنا أن
ذلك ممكن ما دامت البلدة صغيرة لا يزيد سكانها عن ألف أو ألفى
نفس ، فهل يمكن أن يدوم هذا العدد ؟ كأن ليس بين النساء امرأة بلهاء
تتسل كالأرانب بدون أن ترمى مصلحة الجماعة ، أو كأن ليس بين
البشر أدواء وافدة تحتاج إلى نظام يكاد يشبه فى قسوته الأحكام
العرفية ، أو كأن ليس هناك نظام للتعليم أوفى من نظام آخر ويحتاج
فى تنفيذه إلى ما يشبه حكومة صغيرة ؟

ولكن " موريس " رجل فن ، يريد قبل كل شيء أن يرى الجمال
والمثانة فى المساكن والمصنوعات . وقد رأى من انتشار الآلات
والمصانع الكبرى فى القرن التاسع عشر ما أفسد عليه هذين الغرضين .
فهو يكره القرن التاسع عشر بنزعتة القوية إلى الاستفراد والمزاحمة ،
ويبغى ما يقابل هذين المبدأين ، فيميل بطبعه إلى الشيوعية ، ويفرط
فى ميله إليها ، واستحسانه لها بمقدار افراط الناس فى ذلك القرن فى
أكبار شأن الاستفراد

ثم لنتظر الآن إلى " هـدسون " . ونحن فى إنشقاقنا من موريس إلى هـدسون نقفز قفزة كبيرة . فإن " موريس " من الارض ، عادى التفكير ، قد تكون اشتراكية روسيا الحاضرة بعد تحويل طفيف شبيهة بحلمه . ولا بد أن كتابه يعد الآن فيها من الأناجيل المقدسة . أما هـدسون فإنه فى السماء ، يتخطى بنا آلاف السنين . فالقرن التاسع عشر أقرب من أن يلتفت إليه موريس ، والاشتراكية أتفه من أن تشغله ، فهو ينظر إلى تطور الإنسان من الحيوان فى الماضى ويود أن يستولد من هذا الانسان آلهة جديدة

والوحدة الاجتماعية لهذه الرؤيا هى بيت قروى كبير مؤلف من عشرات الغرف . ولهذا البيت تاريخه القديم وآدابه وفنونه ، كأنه دولة صغيرة . وله أيضاً شرائعه التى يتبعها سكانه ويسهر على تنفيذها " أبو البيت " الأكبر وهو الذى يحكم بعزل أحد الأفراد مثلاً لجرمة ما . وحول هذا البيت مزرعته ، وله كلابه وخبوله التى تطورت فصارت تتفاهم مع الانسان وتؤدى غرضه بأيسر إشارة . وهم يعيشون فى هذا البيت كل منهم فى غرفته ، ولكنهم لا يعرفون الزواج . وهم يقضون الشهوة الجنسية قضاء عقيماً غير مشعر ، لأن وظيفة الأثمار خاصة بامرأة واحدة هى " يعسوب البيت " على نحوه ما نرى فى كوارى النحل حيث تحتكر الملكة ، أو يعسوب النحل ، وظيفة التناسل فيكون أبناء (ولد هـدسون سنة ١٨٦٠ ومات سنة ١٩٢٤)

الجيل الجديد لها دون غيرها . فإذا قرر أفراد البيت انتقساء " الأم " عمدوا الى إحدى فتياتهم فيضعونها فى مكتبة خاصة ، حيث تعرف من الأشياء والأسرار مالا يجوز أن يقف عليه غيرها من السكان . ونحن نفهم بذلك أن السكان يختارونها لصفات وسمات بارزة فيها لا ترى فى غيرها . وأن الأسرار التى تعرفها فى المكتبة خاصة بقداسة وظيفه التناسل ، وأنها يجب أن تنتقى أفضل الرجال ليكونوا آلهة للجيل القادم . وأن الكتب التى تقرؤها تخبرها عن صفات الفضل والنبل التى يجب أن تتوافر فى الرجل حتى يحوز شرف الأبوة لأحد أفراد الجيل الآتى . وليس فى هذه الكوارة الأدمية من له حرمة هذه الأم ، فهى تعيش بين اكرام الجميع ، لامرد لكلمتها . وهى تقضى حياتها فى التناسل/فتنجب للبيت نحو ٣٠ أو ٤٠ طفلا فى حياتها ، حتى إذا ماتت أختير غيرها لتأدية عملها . وهكذا يسير البيت ، أو هذه العائلة الكبيرة ، جيلا بعد جيل/فتحذف منه الصفات السيئة وتنتقى وتخلد الصفات الحسنة ، لأن " الأم " قد درست موضوع التناسل والوراثة ، وعرفت أن واجبها أن ترفع بيتها درجة فى سلم التطور . فكل من به نقص فى الخيال أو الذكاء أو الصحة أو الاخلاق لا يكون له حظ الأبوة ، وإن كان لسه من النساء الأخريات ما يشبع فيهن شهوة جسدية عقيمة . ونفهم من هذا النظام أن سكان البيت قد لا يزيدون عن ٨٠ أو ١٠٠ شخص، ولكنهم دويلة صغيرة فيها من يختص بالعلوم

أو الزراعة أو الفنون أو الصناعات الأخرى

وليس فى هذا النظام ما يخالف الطبيعة البشرية ، كما يتوهم القارىء لأول وهلة ، فإن " العائلة " لا تزال موجودة بوجود الأم التى هى صلة القرابة بين جميع السكان . ثم أن الأبناء لا يعرفون لهم أباً معيناً ، فالمنفعة الشخصية والأثرة الأبوية منتفية وبذلك ينتفى التنازع بين أفراد البيت . ثم أن الشهوة الجنسية غير مقيدة ، لأن لجميع الأفراد أن يتمتعوا بها بشرط ألا تعقب نسلا . وقد عرف الانسان نوعا من الزواج يدعى " الضمد " كان العرب يمارسونه فى آسيا ، حيث يتزوج ثلاثة أو أربعة من الرجال (يكونون فى العادة أخوة) امرأة واحدة وينسب الأولاد للأخ الأكبر

* * *

ولنلق الآن نظرة عاجلة على طوبى " ولز " وهى أحدث الطوبيات إذ نشرت سنة ١٩٠٦ . ولسنا ننسى طوبى أخرى أحدث منها عهداً وضعها " برنارد شو " فى قالب درامة ولكنها لهذا السبب تستعصى على التلخيص . و " ولز " كاتب طوبوى كثير الأخيلة والأحلام ، لا يخلو كتاب له من مثل أعلى ينشده ، ثم يتخيله ، ثم يأخذ فى تفصيله ويسط ما جل فيه وما دق كأنه يصف شيئاً محسوساً وهو بتخيل طوباء فى عالم مثل عالمنا ، ولكنه ليس منقسماً أمماً وطوائف تتنازع للتوسع والاستعمار . إذ هو أمة واحدة لها حضارة (ولد ولز سنة ١٨٩٦ ومات سنة ١٩٤٦)

واحدة تدير سككها الحديدية ويريدها إدارة عامة ولتجرى عليها شرائع عامة . ولهذا العالم تاريخ يشبه تاريخ الأرض ، ولكنه أنتهى بشورة أو ثورات أحدثت هذا النظام الجديد ومحت الحدود بين الأقطار القديمة . والسكان يستعملون الآلات إلى أقصى حد ، وهم فى فنونهم لا ينظرون للوراء ، فلست تجد فى المبانى طرازاً ينحو قديماً أو يومى . إلى حضارة بائدة . والأرض وسائر مصادر الثروة ملك شائع للجميع تستغله الهيئات المحلية دون الأفراد . ومن أهم ما يتسم به سكان هذا العالم أن لكل فرد سجلاً يحتوى على اسمه ورقمه وطابع أصبعه وأسماء الأماكن التى تثقل فيها . والفرض من هذا السجل درس أحوال الفرد وكفائاته فى الحياة وفى الوراثة لأنها تستعمل بعد موته

وينقسم الناس فى هذا العالم أربع طبقات . وهم الطبقة العاملة الذين يتولون الإدارة والحكم . والطبقة الشعرية وتتألف من رجال الذهن الذين يحترفون التفكير والتخيل ، ثم طبقة البلداء الذين يقومون بالأعمال الوضيعة . والرابعة هى طبقة المنحطين من مجرمين ومدمنين ونحو ذلك . وهؤلاء يحذفون إلى جزيرة خاصة منفردة حيث يعيشون ويمارسون رذائلهم كما تشتتهى نفوسهم بعبيدين عن سائر الناس . وهم إنما يبقون ويتناسلون بمقدار ما قيههم من خير ، وإلا فمصيرهم إلى القناء . وذلك لأن الرذيلة إذا مورست قتلت صاحبها ، فهى بالنسبة للجماعة داء ودواء معاً لأنها تنفى عنها صاحبها

ولكن فوق هذه الطبقات الأربع طائفة أخرى تقوم بالتعليم والإصلاح وتحرس نظام العالم، تشبه طبقة أفلاطون المؤلفة من الحكماء . وهذه الطائفة تدعى طائفة السامراء . والسامرائي يختار بعد اختبار طويل تفحص فيه قراء العقلية والجسمية من شباب العالم الذي جاز الخامسة والعشرين . فيفرض عليه نظام في اللباس والطعام والرياضة . وفي كل عام يخرج السامرائي إلى الغابة ، لا يحمل كتاباً أو سلاحاً أو قلماً أو نقوداً ، وعليه أن يقتات من الغابة ويتأمل في خلوتها ، وقد حرم جميع المتع الدنيوية ، ثم يعود بعد ذلك إلى الدنيا وقد أكتسب من الطبيعة متانة في الخلق وعافية في الجسم ونظرة أوسع لمصالح العالم وهؤلاء السامراء يسمع لكلامهم ، وتنفيذ إرادتهم ، لا تخالفهم طبقة من الطبقات الأربع . وهم أشبه شيء في نظامهم بطائفة اليسوعيين . فكما أن هؤلاء قد ضحوا بملاذ الدنيا ، وأرتضوا النسك خدمة للمسيحية في عالمنا ، فكذلك يدخل السامرائي في طائفة مضحياً بكل شيء في العالم يتفرغ لإصلاحه ودرس أمثل الوجوه التي ينبغي أن تسير عليها إدارته سواء أكانت في جماعة أو عائلة

وليس في هذا المقترح شيء غريب ، لأنه إذا كان في الدين من القوة ما يحث طائفة من الناس على أن تقبل النسك والإعتكاف في دير قصي ، تتعبد فيه ولا تفكر في ولد يخلقها ميراث أو تعقبه له ،

فليس من الكثير على أبناء القرن العشرين أن تتألف بينهم " رهبانية " يكون غرضها خدمة الإنسان بدلا من خدمة الآلهة

الحقيقة بنت الوهم

إذا كانت الحقيقة هي بنت البحث ، فإن البحث هو أيضاً ابن الوهم. نتوهم أولاً ، ثم نبحث ، ثم نتحقق . نحلم ببناء البيت ، ونترجمه في مخيلتنا قائماً مشيداً . ثم نبحث عن مواده وأسبابه ، ثم نبنيه طبق توهمنا الأول . وما من ثورة أو انقلاب أو إصلاح توافرت أسبابها لأمة ما إلا وكانت وهماً يتوهمه قبلاً أحد مفكرها

والقضية لا تنعكس . فإن كثيراً من أوهام العلماء وأحلامهم ذهبت هباء ، أما لأنها كانت أضغاثاً وركاماً غير منسقة، وأما لأنها جاءت قبل أوانها . ولكننا لو عرضنا طائفة من الانقلابات الحديثة لرأينا فيها أثر المثل العليا التي رآها الفلاسفة والمفكرون . وقد يظن القارئ ، لفرط ما هو لاصق بالحقائق ، أن أثر هذه الأحلام ضعيف في مجتمعنا. والحقيقة أنه كبير جداً ، بل هو أكبر في بعض الحالات مما كان يجب أن يكون . فلو أن الشيوعيين في روسيا مثلاً لم يستسلموا كل الاستسلام لمن حلموا بالشيوعية، مثل " باكونين " و " كرويتشكين " وغيرهما لعدلوا بنظامهم الذي أعقب الثورة عن كثير من نقائصه

ثم ليس هناك شك فى أن " عصابة الأمم " ليست إلا تحقيقاً لحلم
المسيحية فى إيجاد السلام فى العالم . وقد حلم نيتشه بـ " حكومة
الولايات المتحدة الأوربية " . ورأى ولز فى طوباء حكومة عالمية يخضع
لها العالم كله

وأعتبر مثلاً تلك الثورة الأمريكية التى أنتهت بتأسيس الولايات
المتحدة ، أو تلك الثورة الفرنسية التى أنتهت بحرق الملوكية من فرنسا ،
تجد أنهما إنما جاءتا عقب أحلام الفلاسفة فى فرنسا وأمريكا عن الحرية
والمساواة وسائر هذه الأفكار التى لا يزال الناس الآن يجدون فى سبيل
تحقيقها

بل أعتبر التعليم العام والدعوة إليه ، فقد دعا إليه كثير من
الفلاسفة ، وهو لا يزال الآن على الرغم من انتشار المدارس خيالاً أكثر
مما هو حقيقة وهناءً ، فى مسألة التعليم هذه ، يجب أن نقف لكى نرى
شيئاً من فعل الخيال فى النفس وسيطرته على العقل . فإن جميع من
تخللوا المثل العليا لم ينسوا أن يفكروا فى التعليم وتعميمه . كما أن
الذين تشوفوا إلى عهد المساواة ورجوا تحقيقه لم ينسوا أن يذكروا أن
المساواة فى فرصة التعليم هى أرقى ضروب المساواة وأعدلها . وكانت
نتيجة ذلك أنه لم ينتصف القرن التاسع عشر حتى كانت جميع الأمم
الأوربية قد رسخ فى أذهان أبنائها وجوب تعميم التعليم . ولكن فرقاً
نيال الفيلسوف ، بنضجه رأسه المشفق ، وبين الحقيقة تتناولها أيدي

المتوسطين من الناس . فإن التعليم الآن على عمومته فى أوربا ،
ومجانيته ، لا يزال صورة وقشراً أكثر منه حقيقة ولب . إذ هو فى الواقع
الراهن لا يزيد عن أن يكون لعبة أدواتها الورق والقلم . فالصبيان
يتعلمون شيئاً من الجغرافية على الورق ، وشيئاً من التاريخ على الورق
، وحساب البيع والشراء على الورق . والرسم ينقل من الورق إلى الورق
 . والأشعار تحفظ من الورق . وفى جميع البيوت أو أكثرها تجد ورقاً
مضموماً بعضه إلى بعض ، يسمى الكتب ، ندعى كلنا أن فيها
معلومات مفيدة . وقد نشأ من هذا التعليم أن كثر الورق حتى صرنا
نقرأ عدة صحف من ورق كل يوم ، وصرنا نعتاض من التمثيل مثلاً
آخر، ينقل من ورق أو ما يشبه الورق إلى ورق أو ما يشبهه . ولكن
أولئك الفلاسفة الذين تخيلوا التعليم العام لم يعتقدوا قط أن هذه
الثقافة الورقية هى نتيجة أحلامهم . وهم ، لو سألتهم كيف يجب أن
يعلم الرسم ، لأجابوك على الفور : فى الحقل ، وفى الغابات ، وفى
الأسواق ، وعند قطعان الغنم ، وأمام بواشق الأشجار . ولو أنت طلبت
من ولز : كيف يجب أن نعلم الجغرافيا أو التاريخ ؟ . لأجابك على
الفور : وهل مثل هذا السؤال يسأل ، وهل فى العالم سبيل آخر إلى
تعلمها غير السياحة ؟ . وهل من العدل أن يموت إنسان فى هذا العالم
لم يعرف البحر أو الجبل ، ما هما ؟ . ولو أنت سألت أحد الكيميائيين
العظام : كيف نعلم صبياننا وشبابنا الكيمياء بما تردده فى الإجابة بأن

ذلك لا يكون بلا بوتقة ، ونحو عشرين أو ثلاثين أداة أخرى . ولكن الساسة الذين يديرون شؤون الأمم بغير حق يجدون أن التعليم بهذه الطرق يكلف الأمة نفقات طائلة ، فهم لذلك يمسخون التعليم حتى يجعلوه جملة ألعيب مملة تصنع بقلم وورق ومسداد . وهم يرون من السهل أن يقرأ الشاب في كتابه أن حيوان البحر هو كيت وكيت ، تكتب له أنواعه في قائمة كما تكتب في الفنادق ، فيحفظها عن ظهر قلب . لأن هذا أيسر على رجل السياسة من إيجاد سمكة كبيرة تكلف العالم نحو عشرة آلاف جنيه . ومن السهل أيضاً أن يحفظ التلميذ درسه عن النبات من الورق ، وينقل رسومه بقلمه من ورق الكتاب إلى ورق كتناشته . لأن رجل السياسة الذي يدير حظوظ الأمم الآن بغير حق يجد أن تعليم التلميذ حياة النبات من الحقل والغابة يكلف الأمة نفقات كبيرة يخشى إن هو طلبها من الأمة أن تسقطه في الانتخاب . فهو لذلك يؤثر لعبة القلم والورق

ولكن العلماء يعرفون أن التعليم الحقيقي هو أن يحتك الإنسان بالطبيعة ويلابسها ، ويعرف منها ما يريد أن يعرف مباشرة . وأنه خير للصبي أن تلسع أصبعه بالنار من أن يقال له أن النار تحرق . وأن يوماً واحداً في الصحراء ، يقضيه على رملها ويستنشق هوائها ، ويحس ظمأها ، وتكتنفه بداوتها ، خير له من أن يقرأ آلاف الكتب عن علاقة البداوة بالحضارة وحياة النبات والحيوان في الصحارى

وليس من العدل أن نقول أن كل التعليم يجرى الآن بواسطة القلم والورق. والحق أنه لو كان كذلك لما تقدم الطب ولا الهندسة . فلقد كان الطبيب العربى يقصر علمه فى الأمراض على ما تعلمه بالقلم والورق . وكان الخلفاء يمنعون الأطباء من التشريح ، فبقى الطب لعبة سخيغة فى أيدي المشعوذين . وكان علم القرون الوسطى يجرى على هذا النحو أيضاً . فلما كانت النهضة الأوربية الحديثة أخذ العلماء فى هجران علوم الورق ولجأوا إلى الطبيعة ، فصاروا يشرحون النبات والحيوان ، ويجربون بأيديهم التجارب العلمية . ولكن هذا الهجران لم يتم تماماً ، فإن معظم ثقافتنا الآن هى ثقافة الورق . وهى لذلك لا تقترب بأذهاننا ذلك الاقتران الشرعى المنجب ، بل هى تخالل أذهاننا مخاللة عقيمة . فلو انا مثلاً كنا نعرف النبات بأقسامه وأنواعه ، حبة ومنتحجرة ، لأثمرت معرفتنا وأصبح كل منا أشبه شئء بمكتشف أو مخترع فى هذه المملكة العجيبة التى يصح أن يقال عنا فيها: أنا نسمع عنها ولا نراها

وما يقال عن التعليم يمكن أن يقال مثله عن سائر الأشياء التى حلم بها الفلاسفة فأخذنا قشورها العامة وتركنا لبها . فإن المدن الحاضرة ، وما فيها من نظام أكثره قائم على وفرة مخترعات النقل ، يرجع إلى أحلام الفلاسفة عن عصر الآلات الذى تنبأوا به . ولكن هؤلاء ، عندما كانوا يفكرون فى اختراع الآلات ، كانوا ينظرون منه إلى أن يوفروا

على الناس وقتهم كي يشغلوه فيما هو أذكى لنفوسهم وأدعى لراحتهم.
ولكن عامة الأمم أخذت من اختراع الآلات ذريعة لزيادة ثروة أصحاب
المصنع ، ولو كان في ذلك زيادة جهد العمال واشتغالهم بالكفاح
للمعاش

تطور الأحلام

قد يكون من القحة أن تخبر فتاة عن تأويل ما رأت فيما يرى النائم من أمير بهي الطلعة وسيم القد قد حباها وحاول أن يقبل يديها أو قسما. فإن في التأويل الصحيح اتهاماً لعقلها الباطن ، الذي ينطلق وقت النوم ، ويفرج لشهوات الجسم ما قيد منها العقل وقت الصحو . والأحلام سواء أكانت من رؤى اليقظة أم من رؤى النوم دليل على شهوات أو رغبات لا يحققها الوعي أو اليقظة التامة

وقد يكون أسد للمؤرخ ، وأجدى عليه ، إذا هو نصب نفسه لدرس تاريخ أمة ما ، أن يعتمد إلى خرافاتها التي تتكشف فيها أحلامها فيدرسها ويعرف منها تلك الشهوات والنوازع التي كانت تعتلج بها نفوس أبنائها . فسرده تاريخ الفراعنة مثلاً بما فيه من حروب وأسرى وانتصارات ونحو ذلك، قد يكون أقل جدوى في معرفة تاريخ الأمة عن تحليل قصة خرافية واحدة كانت تحدث بها العامة في سمرهم . لأن في هذه الأحداث تتجسم رغبات هؤلاء العامة ، وهي تمثل ما كانت تشتهي نفوسهم . وهي أصدق في وصف أحوالهم من الأكاذيب التي كان الفراعنة يكتبونها أحياناً عن أنفسهم قبل وفاتهم

وقد كانت أول " طوبى " فكر فيها الإنسان من الطوبيات الخرافية
التي دخلت في صلب الدين . فإن المصرى القديم مثلاً ، عندما وجد أن
إصلاح الحال في الدنيا من المحال ، وأن قوى الاستبداد متألبة عليه ،
وأنه يسخر طول النهار فيكدح في وهج الشمس ، أخذ يحلم بنعيم يراه
بعد الموت . فهو يكدح هنا ، ويتهضمه الولاة الظلمة ويصدمون فيه
شهوات نفسه . وعلى ذلك فهو يرى في نعيم الآخرة ميزاناً منصوباً
لمعاقبة هؤلاء الظلمة ، ويرى الهناء والراحة في ظلال الأشجار التي
تتغلغل بينها جداول الماء . وهو في هذا الخيال الحلو لم يختلف عن
الجنائح أو العطشان الذي لا يرى في نومه سوى الموائد مبسوبة ،
والشراب مصفى ، إلا من حيث أن حلمه قد صار حلم الأمة بأسرها ،
وخرجت رواية الفرد إلى رواية المجموع

ثم جاء الفيلسوف فرسم طوباه لهذا العالم ، لا يعبأ بما بعد الموت
ولا يبالي بمصير الرمم . ولكن الفيلسوف ، من ذوى الأحلام الأرضية ،
لفرط اعتماده على الحقائق الملموسة ، عنى بالمادة أكثر مما عنى بالمبدأ ،
وبالوسيلة أكثر من الغاية . ولذلك كثيراً ما تتصفح الحلم فتتسائل
عندما تبلغ خاتمته : هل هذه هي السعادة والرقى ، أو هل هذه ما
نتعوض منها .. وهل نحن بإزاء الأصل أم بإزاء البدل ؟

ثم قد تتسائل أيضاً : لماذا لم يتحقق حلم من هذه الأحلام مع
مضى مئات السنين على بعضها ؟

وهنا نرى ميزة الأديان على أسلام الفلاسفة ومن دونهم من المفكرين . فإن الدين قبل أن يعد بطوبى العالم الآخر كان يطلب من الفرد أن يغير بالإيمان قلبه ، وأن تتبدل نفسه نفساً أخرى هي نفس المؤمن المرتاح إلى إيمانه الراضى به ، بدلاً من نفسه السابقة ، نفس الكافر الذى توسوس إليها الشكوك . وكان هذا الإيمان وحده كفاً لأن يبسر على المؤمن كل تغيير يراه فى طرق المعاش والاجتماع والزواج ونظام الحكومة وغير ذلك . ونقول بعبارة أخرى أن الدين كان يحاول تغيير المجتمع بعد أن يبلغ قلب الفرد فيغيره ، بل يخلقه ، من جديد . وكان لذلك ينجح فى تحقيق غرضه ، لأن أداة تحقيق هذا الغرض هو الفرد . فإذا لم يكن هو قد تفسر فكيف نطلب منه أن يغير طرق مجتمعه ؟

وهذا هو الفرق بين الأديان وبين أحلام الفلاسفة . فالأديان جعلت تبديل الوسط رهناً بتبديل الفرد ، فاستطاعت أن توجد هيئته الاجتماعية مسلمة أو مسيحية أو يهودية . ولكن طوبيات الفلاسفة ، وخاصة فى القرن التاسع عشر ، لم تبال بالفرد أقل مبالاة وإنما عنت بالوسط . ففي القرن التاسع عشر نجد صححات إصلاحية عديدة أعلاها نبرة هى صحيحة الإصلاح الأقتصادى . ولكن منها أيضاً ما كان يدعو إلى إصلاح الحكومة أو التربية ، أو نحو ذلك من ملاسبات الوسط الذى يعيش فيه الإنسان . وكلها خالية من شرطين أساسيين لنجاح أية دعاية

الشرط الاول : أن الغاية لم تكن واضحة ، هل هي الصحة أو الجمال أو حسن الإدارة أو كثرة المال . وهب أن هذه الأشياء كانت هي أو بعضها غاية ذوى الأحلام من الفلاسفة ، فهل كانت تؤدي إلى السعادة والرقى ؟

الشرط الثانى : أنها كانت خلواً من إيجاد أية وسيلة لتغيير الفرد . فإن الأديان غيرت قلوب الناس ، وتمكنت بذلك من إنفاذ ما حسبته إصلاحاً ، ولكن الطوبويين لم يغيروا شيئاً من قلوب الناس تمهيداً لقبولهم بمرامجهم

وجمهور الناس فى كل أمة ليسوا عامة فقط بل أوباش ، يميلون إلى الفرد أكثر مما يميلون إلى السبرمان . ومن هنا تلك السهولة التى يملك بها زمامهم خطيب مفوه أو طاغية ما كر أو ولى أهله ، لأن هؤلاء يخاطبون عواطفهم التى تستجيب إلى خطابهم ، أما الفيلسوف الذى يخاطب فيهم عقولهم فلا يجد فيهم ملبياً . والعواطف أقدر وأرسخ فى طبيعتنا من العقل ، وهى إذا طمت بنا طغت على العقل

وعلى ذلك نقول أن الطوبيات الأرضية لن يفلح أصحابها فى تحقيقها ما لم يغيروا نفوس الأفراد . وليس هذا بالشىء العظيم كما يتصور القارىء . فقد أستطاع الدين أن يغير قلوبهم ، فلم لا تغير اليوجنية عقولهم بمنع البله والضعفاء من التناسل ، حتى يرتقى الإنسان جيلاً بعد جيل ، فيتمشى رقى الوسط مع رقى الإنسان نفسه ؟

وخلاصة فصلنا هذا أن الطوبى قد تطورت ثلاثاً :

- ١- طوبى العامة التى نراها فى أحاديثهم القديمة والحديثة ، وهى سلواهم تكمل لهم ما نقصهم من حقائق الحياة
- ٢- طوبى الأديان وهى فى الحقيقة طوبىان : واحدة فى العالم الآخر وهى ترمى إلى تغيير نفس المؤمن بوعده بالمكافأة . فإذا تغيرت النفوس وقبلت الإيمان لم تعارض فى الطوبى الأرضية التى يرسمها الدين لنظام الحياة على الأرض
- ٣- طوبى الفلاسفة : وهى لا يمكن تحقيقها ما لم يكن غرضها واحداً وهو السعادة والرقى . أو الحياة الطيبة التى تعمل لراحة الفرد وهنائه وارتقاء الأجيال ، وما لم تحارب البلاء فى الأمم بمنع البله والمضعوفين من التناسل

نقد ومراجعة

كانت معارف الإنسان إلي ظهور " أرسطوطاليس " واحدة ، كلها أدب . فلم يكن فاصل بين الأدب والعلم، لأن الأديب وهو رجل الخيال كان أيضا عالما . وكان العالم وهو رجل الحقيقة أديبا خياليا . فلما جاء أرسطوطاليس وشرع في تأليف " التاريخ الطبيعي " نزع فيه نزعة علمية قائمة علي المشرط والتجربة ، فمميز بذلك بين العلم والأدب. وظهرت بعده مدرسة الاسكندرية ، وكانت قيمة العلم فيها والعناية به أكبر من قيمة الأدب ، وجاء العرب ، ولم يكن أدهم بما يغري النفس بالخيال ، إذ كان عماده الألفاظ وما يلحق النفس من الطرب لرنينها . فاندفعت منهم جماعة كبيرة نحو العلم التجريبي . فلما كانت النهضة الأوربية الحديثة عباد الأوربيون إلي الإغريق القدماء ، عن سبيل العرب، فنزعوا نزعة علمية عن العرب ونزعة أخرى أدبية عن الأغريق . وبيان الفرق بين العلم والأدب يحتاج إلي بعض التفصيل . فالعلم موضوعي والأدب ذاتي . والعلم يبحث قطعة من

المعدن ، أو مرضاً من الامراض ، أو نجماً أو نباتاً ، وهو بعيد عنه لا ينظر لعلاقته به ولا يبالى بمنفعة هذا البحث أو ضرره للإنسان . فقد يهتدى العالم فى بحثه إلى سم من أوحى السموم ، فلا يدخل فى بحثه أن هذا السم يمكن أن يستعمل فى الحرب لقتل العدو ، ويمكن أن يكتشف عن سبيله سم آخر لقتل النوع البشرى كله . وقد يهتدى إلى اختراع آلة فلا يبالى بعدد العمال الذين يستغنى عنهم باستعمال هذه الآلة . لأنه لا يعنى بعلاقة العالم الذى يبحث فيه بالإنسان ، وإنما كل عناية بالعلم نفسه ، يبحث فيه وهو غريب عنه بعيد عن منفعته أو ضرره . فإذا رأيت عالماً يبحث فى توفير الوقود ، أو زيادة كفاية الآلة فى العمل ، ألفيته مشغولاً بهذه الاشياء دون أى اعتبار لتأثيرها فى العامل الواقف أمام هذه الآلة وما ينشأ بينه وبين صاحب الآلة من العلاقة الجديدة لهذا الفرق الجديد فى الوقود أو العمل

وهذا بخلاف الاديب ، فإنه يبالى بالانسان لا بالاشياء . فهو لا يمارس الأدب لذاته ، كما يمارس العالم العلم لذاته ، وإنما هو يزاول أدبه لعلاقته بالانسان وهو بذلك خيالى ، يبحث فى الدين والأخلاق والشرائع ، فالأدب بطبيعته إصلاحى موضوعه الانسان . والعلم لا يمكن أن يكون إصلاحياً أو افسادياً لأن موضوعه الاشياء فقط . والاديب يعكس جميع المعارف فى ذهنه لكى يعرف منها أيها مفيد للانسان فيزاوله ، وأما ما

لم يكن كذلك فلا يفكر فيه ولا يكثرث له . حتى العالم وهو يبحث في
شيء انساني، ينظر اليه كأنه " شيء " مستقل عن الإنسان . فالألماس
زينة المرأة "كربون" والحصى ناشئة عن "مكروب"

وفي كلمة "سقراط" ما يدل على روح الأديب فقد قال : " أنت
تعرف أن الاشجار في الحقول لا تعلمني شيئاً . وإنما أنا أتعلم وأنتفع
من الناس في السوق "

ولكن جاء " أرسطوطاليس " فقسم المعارف قسمين :

المعارف الخارجية التي لا يمكن لجميع الناس أن يتناولوها ، وهذه
هي الأدب بفروعه . وأساسه التجارب الانسانية . ثم المعارف الداخلية
وموضوعها الأشياء ودرسها ، وهي العلم . والأولى هي معارف
العامة . أما الثانية فهي معارف الخاصة

ونحن للآن نجري على هذا التقسيم . فلأى فرد من العامة أن
يتكلم أو يكتب ما شاء عن الدين أو الأخلاق أو الشعر أو القصص أو
العمران أو الاقتصاد ، ولكن ليس له أن يكتب عن الكيمياء أو الطب
أو الهندسة .

وقد قلنا ان النهضة الأوربية الحديثة نزعت نزعة علمية ، وهي لا
تزال كذلك للآن . وليس شك في أن كبار العلماء في كل وقت كانوا
من كبار الأدباء ، لأن الذهن الكبير يأبى أن يرضى بأن يكون مخزناً
تذخر فيه المعارف بلا غاية أو قصد . وإذا قلت " الغاية في العلم " فقد

فقد قلبت العلم الى أدب . لأنك عندئذ لا تكتفى بأن تقول أن الألباس كرهون ، بل تضطر الى أن تتساءل : هل هو جميل ؟ . وهل هو جدير بنفقة استنباطه ؟ . وهل من المصلحة العمرانية أن تلبسه طبقة دون طبقة من الناس ؟ ثم أيهما أجمل وأتفع لبنى الانسان : أن يتجه نظرهم نحو جمال الوجه أو جمال الصنعة أى أن تكون الأصابع جميلة فى ذاتها أو مجملّة باللباس ؟ .

لذلك كان ولا يزال كبار الأدباء علماء ، وكبار العلماء أدباء . وحسبنا أن نذكر " أرسطوطاليس " الذى كان يؤلف عن أصول البلاغة والتاريخ الطبيعى أو " دافنشى " الذى كان يمارس ويخترع الطيارات . أو " جيته " الذى كان يشتغل بالتشريع وتأليف القصص والشعر . ولكن جمهور العلماء الآن طائفة خاصة بعيدة عن طائفة الأدباء . وهذا البعد بينهما ، وانفصال الواحدة عن الأخرى ، قد أثر أثره فى الهيئة الاجتماعية التى نعيش فيها

وذلك لأن الأدب بجميع فروعه لا يحيا ويذكر الا اذا قام على أساس العلم . والعلم نفسه معارف جوفاء لا غاية لها الا اذا هضمها الأديب ومثلها فى ذهنه . ومن هنا انفصل الأدب والعلم كلاهما عن الحياة . فالأديب الآن ، سواء أكان رجل دين أو تصوير أو قصص أو شعر أو غير ذلك من فنون الادب، يبحث مثلاً عن السعادة المنزلية وهو لا يدري شيئاً عن مسادة البناء أو أنواع النبات الذى يستطرف للزينة

او هندسة التهوية الصحية أو تطهير المدن أو غير ذلك مما يعرفه العالم ويختص به . ولكن العالم أيضاً ، وهو يعرف هذه الأشياء ، يجهل عنصر الجمال فى المنزل ، فيبينه كأنه يبنى سجنأ أو مصنعأ

وخلاصة ما تقدم كله أن أحلام الفلاسفة يعتمدها فى جملتها نقص عظيم ، وهى انها نتاج افكار الأدباء ، أو افكار العلماء . وقبلما نجد ادبياً عالماً ، مثل أفلاطون أو ولز أو هــسون ، يحاول أن يجمع بين الادب والعلم فى تخيل طويأ . والحقيقة أن الانسان فى زمننا الحاضر يشق عليه أن يجمع بين الاثنين الا اذا قنع من العلم بالتطرف من فروعه المختلفة دون الإمعان فيها . وعلة ذلك أن العلم قد تقدم وصارت الأحاطة بأحد فروعه تستغرق الحياة بأجمعها ، فاما أن يطول العمر حتى يبلغ مائتى عام أو ثلاثمائة ، واما أن نقنع بقليل الدرس منه

ولكن يجب أن نعرف أن تقدم العلوم ، بحيث لا تتمشى مع الآداب ، يؤذى الناس ولا يفيدهم . فاذا عرف الناس مثلاً علم الكيمياء وما هى الفارات القاتلة التى تفنى منها الجيوش أو المدن فى ساعة ، دون أن يكون لهم مع ذلك خيال راق أو عقيدة سامية فى مستقبل الإنسان ، أو معنى مهذب للجمال ، كان عملهم بالكيمياء ضرباً من أذى النفس الذى يجب أن يحتاط الناس منه

وحضارتنا الراهنة هى حضارة العلم المنفصل عن الأدب ، أى حضارة الصناعة القائمة على إدمان الاختراع الآلى إلى أقصى حد.

. ولكن الصناعات مهما أوتيت من رقى إن هي إلا وسيلة وسيب من وسائل الحياة وأسبابها ، ولذلك ما زلنا نحن على رقبنا الصناعى الحاضر نتساءل : أينما اصح نظراً . للحياة والسعادة وتقدير الجمال والرقى ، نحن أم المصريون القدماء أم الأغريق القدماء ؟

فاذا أردنا أن نشرح فى تخيل أخيلة صحيحة يمكن تحقيقها يجب قبل كل شيء أن نصل ما افترق من العلم والأدب . ولا عبرة بتأخير الأدب فى هذه الحالة . فإن تقدمه وحده لا فائدة فيه . إنما يجب أن نذكر أن العلم إنما ارتقى وحده لاتفصاله عن الحياة ، أو بعبارة أصح نقول أنه ارتقى لأنه حين تجرد من العامل الشخصى وصار موضوعه الأشياء دون الناس ، انطلق من جميع القيود التى يضعها ذوى السلطان الحكومى أو المالى أو الدينى على فنون الأدب . كما هو الواقع الآن فى معاملتهم للبحث الدينى أو العمرانى . فلن يرقى الأدب حتى ينطلق هو أيضاً من هذه القيود بحيث يحوز عمل التجربة العمرانية كما تعمل التجربة الكيميائية ، ويحوز ابتكار العقيدة الدينية كما يحوز اختراع آية آلة للصناعة . فاذا تخيل الأديب خياله ورسم طوباه ، لم يكن ذلك لمجرد اللذة أو التسلية ، وإنما هو يبنى على قواعد العلم . بحيث يصير خياله عملياً تتيسر تجربته فى مدينة أو قرية أو قطر ومهظم ماوضع من الطويات فى القرن التاسع عشر عنى فيه أكثر مما

يجب بالنظام الإقتصادي للأمة . وكان هذا طبيعياً للإنتقال
الإقتصادي الكبير الذي حدث في القرن الماضي بانتشار الآلات . ولكن
النظام الإقتصادي ليس كل شيء .

وهو أيضاً لا يمكن حله ما لم نحل إلى جانبه مسائل أخرى . لأن
الاعتماد على حل مسائل الحياة بتنظيم عمل الآلات هو حل علمي
موضوعي ناقص . لأن الحياة تحتاج أيضاً إلى حل أدبي يدخل فيه
الإعتبار الديني والثقافي والأخلاقي ، ولن يكون ذلك حتى يكون
الأدب عالماً أو العالم أديباً

وبعبارة أخرى نقول أن الأمة التي ترقى فيها مركبة كالأتومبيل
مرة كل عام بأختراع أداة جديدة ، لا تعتبر أنها سائرة نحو الحضارة
الصحيحة ما لم يرتق دينها وينتفع على الأقل مرة في العام أيضاً .
والحضارة التي تعنى بمكتشفات العلم لن تكون حضارة صحيحة ما لم
تعنى بمكتشفات الأدب . والأمة التي تجرب طريقة جديدة لمزج الأصباغ
لن تكون حياتها صحيحة ما لم تجرب إلى ذلك طريقة جديدة للمعيشة
بين الأفراد ، بحيث يساوي رقيها العمراني رقيها الصناعي .

خيمى : مقدمة لطوبى مصرية

" الزمان نوع من المكان . فبدلاً من أن أقول : منذ ألف سنة حدثت تلك الحادثة ، يمكننى أن أقول : أن تلك الحادثة حدثت فى المكان الفلاتى فى الفضاء ، فى دورة الأرض الفلانية عند حركة الشمس الفلانية .. لو كان تحقيق حركتى الأرض والشمس يمكن تعيينهما فى مكان فى الفضاء . فأفهم عندئذ من هذا القول ما أفهمه من قولى: منذ ألف سنة حدثت تلك الحادثة . بل يكون فهى هنا أدق وإدراكى للحادثة أوضح "

كنت أتلفظ بهذه الألفاظ بصوت أسمع ، كما هى عادتى عندما أريد أن أوضح لنفسى شيئاً غامضاً ، لأن اللفظة عندى هى أساس المعنى . وليس المعنى أساس اللفظ

وأنا فى هذا ، أحاول أن أميز بين الزمان والمكان ، وإذا بالناس يغلبنى ويكاد يتطور إلى نوم . ثم إذا بوعى العقل الظاهر ينقلب إلى أحلام العقل الباطن . ثم فترة من التردد ، بين الصحو والغفو ، ثم النوم . ولكنه لم يكن نوماً إلا فى ظاهر الجسم ، أما فى باطن الأعصاب والدماع فقد كانت الأفكار تتأرجع ، والخواطر تترادف وتتجمع ، ثم تتشتت وتتبدد . وبعد برهة ، فقدت الشعور بزمانها (أو بمكانها) أحسست كأنى أنحسدر وتبدأ إلى حيث ينقشع الظلام وينبج الضوء

ثم أستنشقت أنفاس الصباح ، بل كبرعت منها وعبيت فيها ،
كأنى لم أذق طعم الهواء النقي منذ سنين . وهبت من فراشى وأنا أقول
" تأخرت . تأخرت " . ولكنى قعدت ثانياً فى الفراش عندما نظرت إلى
ما حولى . فإن الغرفة لم تكن غرفتى ، ولا الفراش فراشى . ونظرت إلى
الحائط فوجدت معلقاً عليه نتيجة وبها هذه الأرقام : ٧ فبراير ٣١٠٥

وتأملت ما حولى فوجدت المرتبة والوسادة واللحاف كلها مصنوعة
من الكاوتشوك المنفوخ . والغرفة نظيفة ناصعة . فقلت فى نفسى " ألا بد
إنى كنت مريضاً وجاموا بى إلى هذا المستشفى اليهودى ، إذ لاشك فى
أن هذه السنة يهودية تبستدىء من موسى . وموسى جاء قبل المسيح
بنحو ١٣٠٠ سنة . هؤلاء اليهود لا ينسون تاريخهم . ولكنى لا أعرف
لماذا أحضرونى هنا ، فإنى لا أتذكر أنى مرضت "

ثم نظرت إلى جسمى لأرى به علامة جرح أو كسر فلم أجد .
فكدت ذاكرتى أبحث عن جاذبة فى الماضى فلم أهتم . فقممت من
الفراش ، وسرت نحو النافذة ، ولكنى لم أخط خطوتين حتى صكت
أذننى صرخة ، فالتفت الى الوراء فرأيت فتاة تغدو وهى تقول : " النائم
صحا . النائم صحا "

ولم تمض دقائق حتى سمعت المستشفى كله يردد هذه العبارة :
" النائم صحا " . وبعد نحو ربع ساعة سمعت الشارع كله يتجاوبها .
فتحاملت الى النافذة ، وأنا أكاد أقع من الضعف ، وأطللت ،

فرأيت جموعاً من الناس في هيئة غريبة يتصايحون : " النائم صعباً ،
ها هو ذا ينظر ، أنه شاحب . قد لا يعيش . يجب أن يرد الى الفراش
أين المعرضات والاطباء ؟ " ، وكان الآباء يحملون الأطفال على أكتافهم
لكى يرونى من الزحام . وحلقت فى الجو قريباً من النافذة نحو
خمسین طيارة صغيرة ، ووقفت ، ينظر الى ركبائها
وبينما أنا مشغول بهذا المنظر ، وإذا بيد توضع على كتفى فالتفت
ووجدت رجلاً نحيفاً ، طويل الوجه ضخم الرأس ، عليه ملامح البنات ،
يقول لى بصوت عذب : " هل لك أن تعود الى الفراش ؟ . أنت مازلت
ضعيفاً "

وكان فى الفناظه حلاوة وإغراء . فعدت الى الفراش ،
واضطجعت ، فتعد على كرسى بجانب سريري ، وأخذ يجس نبضى
ويفحص لسانى ويتحسس أجزاء فى جسمى . ثم قال : " يبدو لى أنك
قد عوفيت ، ولكن يحسن عقد مجلس من الاطباء للإقرار على شأنك "
فقلت : " ماذا كانت علتى ، ومتى يسمح لى بالعودة الى
البيت ؟ " فضحك ضحكة طويلة دون القهقهة ، وقال : " يظهر أنك
تجهل كل شىء . لقد مضى عليك هنا ١١٨٠ سنة . إن حادثك غريبة
فقد أصبت سنة ١٩٢٥ بفالج فى الدماغ ، فذهب عنك وعيك ، وبقيت
سائر أعضاء جسمك تعمل كما لو كنت صاحباً . كنا نغذيك وأنت نائم
حتى ذهب عنك الفالج فصحت الآن . لقد نمت ١١٨٠ سنة "

ولكن هذا الكلام لم يجز الى عقلى . ورأيت من العبث أن أجادل
هذا الرجل ، فتجاهلت كل ما قاله وقلت بثبات وعزم : " أريد أن أرى
عائلتى "

فعاد الى ضحكته التى تراءت لى هذه المرة أنها سخيفة جداً ،
وتبدت على وجهه عندئذ ملامح الرغد الذى يتعلل بحبسى وإيهامى
أوهاما كاذبة . فقلت وصوتى يتهدج بما يهيج فى نفسى من الغيظ : "
إذا لم أذهب إلى عائلتى فأنا أقفز من هذه النافذة وأنتحر . وأنت
المسئول "

فعلت وجهه حمرة الأضطراب ، وقام يتلطف ويسرى عنى ،
ويقول : " ستخرج قريباً بعد استفتاء المجلس ، لا تخشى شيئاً . كلنا
يحب لك الخير والراحة . لا تخشى شيئاً ، أنظر قد حضر بعض
الأعضاء "

فنظرت الى الباب ، فاذا بخمسة أو ستة أشخاص يسرون نحو
غرفتى . وتأملتهم عندما دخلوا فوجدت فيهم اثنتين من النساء ،
واخذوا جميعهم يفحصوننى ، وأقروا على أن صحتى جيدة . وأذنوا لى
فى الخروج بعد تناول الطعام .

فقدم لى طبق من فواكه مختلفة لا أعرف أسماءها ، ولم يقدم لى
شيئ مطبوخ ، فقلت : " هذا لا يقيتنى . ارجوكم ان تحضروا لى لحماً
وخبزاً فإنى أشعر بالجوع الشديد "

فلأطلقنى أحدهم وأخبرنى بأن فى هذه الفواكه ما يزيد على حاجة
جسمى من الغذاء ، وفيها طعوم مختلفة حلوة وملحة . ثم رتبها لى ،
فأكلت أولى الأثمار فكانت تشبه فى طعمها اللحم . ثم أكلت شيئاً من
الجوز ، وكان يسيل دهناً . ثم تناولت ثمرة جميلة اللون ذكية الرائحة
قريبة فى الطعم من الكمثرى . وأحسست بالشبع والرى من هذا الطعام
اللذيذ

ثم أنفض المجلس ، وبقي الشخص الأول ، فقال لى : " والآن هل
تريد أن تخرج الى المدينة ؟

فقلت : " اجل . هذا ما أريد " . فتناولنى سراويل ومعطفا
لبستها وخرجت معه

وما أشد ما كانت دهشتى عندما رأيتنى فى مدينة غريبة يتزاحم
أهلها لرؤيتى . وكانوا كلهم يشبهون رقيقى ، طوال الأجسام ضخام
الرؤوس نحيفى الابدان . لا يختلف الرجل عن المرأة الا فى أن له
شاربين دقيقين . أما اللحية فكانت أرى شعرات فى مكانها أو لا أرى
شيئاً . وكانت أفواههم صغيرة ، وبعد أن أختلطت بهم عرفت أن ليس
لهم أسناناً فى الفك الأسفل . أما أسنان الفك الأعلى فلم يبق منها الا
اعجازها . وأخبرنى هذا الشخص الذى كلف بمرافقتى عن أشياء كثيرة
خاصة هى وبالمدينة التى نسير فيها . فحكى لى أنى
عشت عيشة نباتية ، وأنا مسطح على فراشى دون أن أعى ،

وكيف أن هذه المعيشة كانت سبباً في أن أعمر هذا العمر الطويل، لاتي
صرت بمشابة الشجرة لا أجهد الا أقل الجهد . وكيف ريت أموالى حتى
صرت الآن من أغنى الناس . ففى سنة ١٩٢٥ كنت أملك ٥٠ فداناً ،
ولم يكن يتفق على بعد الفالج الا ربع عشر فدادين ، وما تبقى من
الربع يتوافر بأسمى . حتى أن أولادى لم يرثوا شيئاً منى لا هم ولا
أحفادهم وعلى الرغم من مقاضاتهم لى لم تستطع محكمة أن تقر على
موتى ، فتراكمت أموالى بهذه الطريقة . ثم قص على تاريخ مصر فى
الالف السنة الماضية . وكيف حدثت فيها ثورات اشتراكية ، وكيف
أخفقت التجارب الاولى للحكومة ، ثم أنتهت بالنظام الحاضر . وأخذنى
فى اليوم الاول لخروجى من المستشفى وأرانى بعض مناظر مصر أيام
كنت أعيش فيها قبل أن أمرض . فعرض عليا جملة أشرطة سينما
فوتوغرافية ورأيت بلادى كما كنت أعرفها . ثم عرض على أشرطة
أخرى من المائة السنة التالية ، ثم الثالثة ، وهلم جرا ، الى أن أبلغنى
مناظر " خيمى " أى مصر فى عصره

وكان قد أستقر فى ذهنى الآن أن ما رواه لى عن مرضى صحيح .
وقد كنت فى حياتى السابقة أعرف شيئاً عن نظرية النطور ، بل أدعو
الى الايمان بها ، فلم يكن من الصعب اذن أن أستضىء بضوئها
فى الظروف الحاضرة . ولكن علمى بهذه النظرية أسقط كرامتى بعض

الشيء . فإننى كنت أنظر الى نفسى كأنى متأخر عن هؤلاء الناس نحو ١٢٠٠ سنة . وكأنى بينهم بمثابة انسان متحجر حي . والحق أنهم كانوا ينظرون الى على الرغم من تأديهم ، هذه النظرة المهيمنة . فقد كنت ارى عيونهم تثبت فى وجهى ، وتتفحص هيثة دماغى . وكان صبيانهم يتجراون أحيانا على لمس لحيتى ، ويتعجبون من خشونتها ، كما كانوا يصرخون أحيانا احدى بتعجبهم من صغر رأسى

وعدت عند الأصيل الى غرفتى فوجدت ممرضتى التى قدت لى طعاما من الفاكهة أيضا . وأخذت فى الحديث معها ، وكان قد غادرنا رفيقى وشعرت ونحن فى وحدتنا بالغرفة بشعور عائلى بينى وبين هذه الفتاة ، وقد عرفت منها أنها عانيت بتمريضى نحو ثلاثين سنة . وكان هذا وحده كافيا لأن أدل عليها بحق الصحبة القديمة والعشرة الطويلة . ثم قصت على حالى أيام مرضى . ولم تكن القصة طويلة ، إذ كانت تتلخص فى أنى كنت فى سبات حال بعض الحيوانات وقت تشتيتها ، حين تتحجر وتنام ثلاثة أو أربعة شهور لا تأكل فيها ويقتصر نشاط جسمها على التنفس مع دورة دموية بطيئة جدا . ولما رأى الأطباء أنى سأموت لا محالة إذا لم أتغذ صاروا يحقنون عروقى بمواد مغذية نحو مرة كل شهر تقريبا ، فكانت الحقنة تمسك رمتى . واتباع الاطباء هذه الطريقة معى وجعلونى أعجوبة الدهر ، حتى قيل لى أنه قد ألقت كتب

فى حالتى شاذة وتعليلها بجملة عذلى . وآخر ما ظننه بعضهم أنى اختلف
عن سائر الناس فى تركيب بعض الغدد الصماء . وقد أرتأى بعضهم
تشريحى بعد موتى ، ولكنى أخلفت ظنهم إذ صحوت
وكانت الفتاة تخاطبنى بصوت جميل فيه بحة مستملحة . وكانت
طويلة ، ضخمة الرأس ، لا يكاد يكون لها صدر يشبه صدور النساء
البارزة . وكانت تلبس لبس بنى عصرها . فالساقان والذراعان والرأس
عارية ، والحذاء بلا جورب . وليس على جسمها من الملابس سوى
قطعة من نسيج واسع متخلخل أشبه شىء بالكاوتش ، يغطى ما بين
العنق والساقين . وكان الرجال والنساء سواء فى ذلك . أما شعر الرأس
فكان يرمى حتى يغطى الوجه والقفا

وألفت هذه الفتاة التى عرفت أن اسمها " رادىوم " وشعرت منها
كأنها قد ألفتنى . وكان فى نظرتها لى شىء يحببها إلى ، إذ لم أكن
أرى فى عينيها ذلك الإحتقار الذى كنت أراه فى سائر أهل " خيمى "
عندما كانوا يتفرسون فى هيئة رأسى وكونها دون رؤوسهم فى الحجم .
وكانت تشرح لى كل شىء خاص بأحوالهم ومعاشهم ونظامهم . وكنت
كل يوم يزيد ارتباطى بها وتعملى عليها ، حتى كنت أقف فى جانبها
كالطفل فى جانب أمه

وشرحت لى غذاءهم : فوجدت أنهم لا يعرفون التبليخ ولا يذهبون

الحيوان . لأنهم قد أستنبطوا من الأثمار فواكه مختلفة لحنها ما ينفع
غذاء ومنها ما يستعمل دواء . وبعض غذائهم كالنشا والسكر كانوا
يستخرجونه من الجمامد ، أى بالتركيب الكيميائى . وكانت الزراعة فى
أيدي ناس خبراء لكل منهم معمل يستولد فيه البذور الجديدة ويقايس
فيه الأغذية المختلفة مع طعمومها الحلوة والمريزة والملحة . ولم تكن
عنايتهم بالأثمار من حيث الغذاء فقط ، فقد كانوا يلتفتون أيضاً الى
الأرج واللون ، بحيث لا يتعد الإنسان الى طعام حتى يرى ما يغذو
العين والخيال شيم كما يرى من الطعم ما يلذ اللسان

وكانت مساكنهم فى غاية العجب . وبعضها مؤلف من طبقات ،
يعتوى المسكن على نحر مائتى نفس تقرباً من أولئك الناس الذين
يميلون الى الألفة والأجتماع . بينما كانت هناك منازل منفردة بين الحقول
يعيش فيها المغمومون بالعزلة أو المنكبهين على درس موضوع خاص
يستغرق كل وقتهم وينصرفون اليه جميع قواهم . وكانت حياتهم تسهل
على الإنسان الانفراد ، لأنه كان يجد فى وحدته كل ملاذ الأجتماع .
إذ كان يجد فى غرفته جهازاً للتلفون الاثيرى ، فيسمع من الخطب
والمحاضرات والأخبار ما يشاء ليلاً أو نهاراً . وكان إذا أراد أن
يخاطب صديقه ، مثلت له صورته وسمع صوته وهو قاعد فى غرفته لا
يرى . ولم يكن بالمدن ذلك الغبار أو الضوضاء الذى كنا نراه ، لأن
الشوارع كانت جميعها مغطاة بالخشب أو الكاوتشوك . حتى الطرق

الزراعية كانت كذلك تقوم على جوانبها المصايب الكهربائية ، فلم تكن البيوت تحتاج الى كنس وتنظيف لا ينقطعان . ثم كان أثاث المنازل يساعد على النظافة لأنه صار كله تقريباً من الكاوتشوك . وكانت الغرف تدفأ وتضاء ، كما كان بها أيضاً مراوح تدار باللاسلكى . وكان لكل فرد تقريباً أتومبيل خاص ، أو طائرة صغيرة ، وكلاهما يدار أيضاً باللاسلكى

ويمكن أن أقول أن حياتهم كانت على وجه العموم أنفرادية من الوجهة الجنسية ، ولكنهم كانوا فى انفرادهم أكثر اجتماعاً منا من الوجهة المعنوية . فانى لم أعرف بينهم إنساناً لم يسمع غناء كل يوم ، أو لم يشاهد درامة تمثل فى مكان قد يبعد عنه بألف ميل ، أو لم يخاطب أصدقاءه النائين عنه فى أقطار أخرى مرة كل أسبوع على الأقل ويرى وجوههم ويضاحكهم ويجادلهم . فلم يكن ثم ما يدعو الى أن يعيش هؤلاء الناس معاً ، ثم كان لكل منهم مركبة هوائية أو أرضية تنقله الى حيث يشاء بأسرع من الريح

ولكنى مع إعجابى بهم لا أنكر أنى أمتعزت كثيراً عندما علمت أنهم لا يعرفون الحياة العائلية كما كنا نفهمها

ومما زاد امتعاضى أن وجدت " راديوم " فى غاية الجهل وسوء العاطفة نحو هذه الحياة . فقد كانت عواطفى توسوس الى وساوس لذينة عن حياة زوجية مع " راديوم " فأثقلها معشوقتى وزوجتى ،

تسكن الى وأسكن اليها ، فى مسكن يكون عشنا ، نأوى اليه معاً .
ويكون لنا من ثمرة الحب المتبادل صبيان روقة نتمتع برؤيتهم أطفالاً
ونشعر فى تربيتهم بلذة الأبوة

ولم تكن " راديوم " والحق يقال تشذ عن بنى جنسها فى سوء
العاطفة الغرامية . فانهم كانوا جميعاً جامدين باردين ، ينظرون بعقولهم
أكثر مما كانوا يحسون بعواطفهم . ولا أذكر أنى رأيت أحداً منهم
يغضب الى الاحتداد أو يفرح الى الطرب . فأقصى غضبهم امتعاض ،
وأقصى فرحهم ابتسام أو ضحك لطيف . ولم يكن الزواج لديهم قائماً
على اعتبارات العشاق بل على اعتبارات المعيشة والغاية والنسل . فإذا
سمع أحدهم عن فتاة تبحث أبحاثه وتدرس ما يدرسه تخابراً ، وينتهى
تخابرها الى ألفة ، بحيث يعيشان معاً فى مسكن واحد . ولكنهما مع
ذلك لا يجوز لهما النسل الا بعد شهادة من الحكومة بأنهما جديران
بالنسل

وكان النسل أخطر ما تعنى له حكومة " خيبي " . والحق أننى
عندما أتأمل فى أحوالهم أجد أنها كلها تدور حول العناية بالنسل .
فقد استقر فى هؤلاء الناس أن الانسان كان فى الزمن البعيد يشبه
القرود ، وأنه بالعناية والانتخاب يمكن أن يرقى الى أن يكون حيواناً
راقياً جداً من حيث العواطف والعقل . وما ساعدهم وشجعهم على هذا
النظر أن الاشرطة السينماتوغرافية التى حفظت لهم تاريخ ألف ومائتى

عام قد وقفتهم على أحوال آبائهم ، ودرجة رقيهم المنحطة ، وكيف تدرجوا فى الرقى الى أن وصلوا الى حالتهم . فلم يكن فيهم من يستطيع التنطع بمجد الآباء ، لأن هذا المجد كان يرى على لوحة السينما توغراف فتوى عندئذ الوجوه الدميعة والغبار المتطاير والشوارع القذرة والرؤوس الصغيرة . وأذكر أنى تصببت عرقاً من الخجل عندما رأيت شريطاً خاصاً بأحد الموالد كانت إحدى الشركات قد أخذت صورته سنة ١٩٢٤ من القاهرة ، وتعجبت ، كيف كنا نعيش فى ذلك الوسط القذر

وكان عندما يولد غلام جديد فحضر للمنتزل لجنة من العلماء ، فتفحص جسمه ، فان ألفتة يلىق للحياة أو لا قتلتة فى المكان . ولم يكن الأبوان يفضيان من ذلك ، وكنت أسمع منهم أن أكبر ما يقتل لأجله الأطفال هو " الردة " أى أنهم يرتدون الى أصلهم فيخرجون برؤوس صغيرة

وقد تحدثت مع " راديووم " كثيراً عن هذا الموضوع ، فوجدتها لا تستفزع قتل الاطفال . وأجابتنى بلهجة باردة جداً بأنهم لا يحسون بالموت أكثر من أى حيوان آخر ، وأن مصلحة الأمة والأجيال القادمة تقتضى ذلك . أما طريقتهم فى التربية فكانت فى نظرى أفضل ما عندهم . فقد كان الطفل يبقى مع أبويه نحو ست سنوات ثم يؤخذ بعدها الى المدارس حيث يعلم تعليماً عملياً لذيذاً . فكانت الجغرافيا

والتاريخ، وأيضاً التاريخ الطبيعى، تعلم بالسينماتوغراف. فكان الصبى الذى لم يتجاوز العاشرة يعرف هذه الأشياء من المعارف الصحيحة أكثر مما يعرفه طالب قد بلغ الثلاثين فى مدارسنا القديمة . وكانت المدرسة عبارة عن ورشة ومكتبة يتنقل بينهما الطالب . وكان يمتحن امتحانين ، أحدهما امتحان حضارة خاص بنظام الحكومة وتركيب الآلات المختلفة والزراعة والكيمياء ونحو ذلك مما تقوم به الحضارة . والآخر امتحان ثقافة حيث يدرس تاريخ الأمم والأنسان القديم والفلسفات المختلفة التى نهت من أذهان الناس من العصور البعيدة والأديان والآداب ونحو ذلك» وكان الطالب لا يترك المدرسة عادة قبل الأربعين . ولم تكن هذه المدة طويلة اذا أعتبرت أن أهل خيى كانوا يعمرن الى نحو مائة وخمسين سنة. وكانت السياحات البعيدة الى ثلوج القطب الجنوبى، أو الى بوادى الصحراء، أو الى الجبال الشامخة، من ضروب التربية التى يترهاها الشاب. فكان الشاب لا يخرج من المدرسة الا وقد رأى العالم كله تقريباً أما نظام الأعمال والتكسب فكان يشبه ما كنا نسمع عنه من الداعين للإشتراكية فى زماننا. فقد كانت خيى مقسمة الى ضياع بها دساكر ، يتبع كل دسكرة نحو ألف فدان ، وبها مصنع . وكانت الزراعة كما نفهمها الآن قليلة ، لأنه لم يكن يحرق من هذه الألف سوى نحو خمسين أو ستين فداناً لزراعة النباتات الغربية السنوية، أما سائر الأرض فكانت مغطاة بالأشجار المعمرة يؤخذ منها الطعام

واللباس والوقود . ولم يكن الري من النيل كما كان فى عهدنا ، لأن هذا النهر كان قد جف تقريباً لأن أهل خيى صاروا يزمون السحاب بأزمة علمهم ، يرتفعون فوقه بالطيارات ويطلقون عليه من المواد الكيميائية ما يجعله يتكاثف ويقع مطراً فى أى جهة أرادوا وفى أى وقت شاموا . أما مصانع الدسكرة فكانت تصنع كل شىء تقريباً بحيث أن كل دسكرة كانت مستقلة فى معاشها عن الأخرى ، إلا فى أشياء قليلة تبادلها وغيرها . وكان أهل النقابة أشبه شىء بشركة تعاون . ولم يكن يحتاج أحدهم الى العمل لمعايشه أكثر من ساعة فى اليوم ، وسائر نهاره وليله يقضيه فى المتع الذهنية المختلفة وفى متابعة أبحاثه العلمية ، إذ قلما كان يخلو فرد من أبحاث علمية يملأ بها فراغة سواء فى ذلك الرجال أو النساء .

وكانت حكومة " خيى " مؤلفة من خمس هيئات : الهيئة التشريعية والهيئة القضائية والهيئة الصحافية والهيئة الدينية ثم أخيراً الهيئة التنفيذية ، فأما الهيئة التشريعية فلم تكن منتدبة من أفراد ينتخبونها كما كنا نعهد فى زماننا . بل كانت تنتخبها النقابات المختلفة ، فلنقابة الأطباء مثلاً ١٠ أعضاء ولنقابة البيولوجيين ، أى علماء الحياة ١٠ آخرون ، ولنقابة علماء الزراعة ١٠ ، ولنقابة التجارين ١٠ ، وهلم جرا .. حتى يتألف من ذلك مجلس به نحو ٥٠٠ عضو هو السلطة العليا للتشريع

وأما الهيئة القضائية فكانت أقل الهيئات ظهوراً في الأمة ، لقلة عدد المتقاضين . وكان القضاة ينتخبون عادة من طبقة رجال العمران والبيولوجية للفصل في من يجب قتله من الناس أو منعه من التناسل ، ولم يكن ثم عقاب آخر

أما الهيئة الصحافية فكانت مؤلفة في الحقيقة من عدة هيئات . فاحداها مثلاً تشتغل بإصدار صحيفة يومية ، أما لاسلكية وأما مطبوعة عن الكيمياء . وأخرى تصدر صحيفة أخرى عن الأدب . وأخرى عن الطب . وهلم جرا . وكانت الجامعات من الهيئات الخاصة بإصدار الصحف ، ولم يكن نظام الجامعات عندهم يختلف عما كان عندنا

أما الهيئات الدينية فكانت مؤلفة من نقابة عامة من الفلاسفة . ولم يكن يقبل فيها أحد دون السبعين . وكان رأيها هو الأعلى في تقرير ما يؤثر في ذوق الأمة ومزاجها وقصدها . فكانت تعين طريقة تدريس التاريخ وتقرر بناء التماثيل لبعض مشاهير التاريخ أو هدمها . وتقيم التماثيل الخاصة بالجمال أو بالكفايات الإنسانية الأخرى في الميادين . وكذلك الحال في الموسيقى والتصوير والرقص ، تأمر وتنهى فيها كلها . لأن أهل " خيمى " يعتقدون أن ديانة الإنسان أخرى بأن تتكون من هذه الأشياء من أن تتكون من العقائد المحفوظة عن ظهر قلب

كما كنا نفعل فى أيامنا . ولأهل " خيمى " معابد يتعبدون فيها على
انفراد ، وعلى عكس ما كنا نفعل . والمعبد عبارة عن بناء مستطيل
كبير ، على كل جدار من جدرانه الأربعة صور تمثل بزوغ الحى الأول
وتطوره الى الإنسان . ثم ما تخيله هؤلاء الفلاسفة وتنبأوا به عن
مستقبل الإنسان فى صور أخرى تمثل ضخم الرأس كبير العينين شريف
الطلعة دقيق الأطراف والأنامل . وفى جدار آخر صور أخرى تمثل
ارتقاء الصناعة من عهد الإنسان الحجري الى زمن أهل " خيمى " وفى
جدران أخرى صورة عجيبة لمركز الأرض فى هذا الكون ونسبته اليه
وفوق الأرض إنسان يتأمل مركزه فى هذا الفضاء الواسع . وفى الجدار
الرابع صور الفلاسفة والأنبياء العظام ، وعلى شفتى كل منهم كلمة
بارعة أثرت عنه وصار لها أثر فى التاريخ . والخيمى إنما يذهب الى
المعبد ليتبين قصده فى الحياة ، إذا أحس بسأم أو ضلال . فيقعده هناك
منفرداً يحاول أن يتصل بالكون وأن يعرف مركزه ومهمته فيه . فيرتاح
قلبه ويهدأ ضميره، وإذا استمر به السأم قصد الى أحد رجال الهيئة
الدينية فيدرسه ويعنى به ، ويفتح له أبواباً ينشط بها نفسه

أما الهيئة التنفيذية فكانت مؤلفة من موظفى الحكومة المحليين
والعموميين وعليهم انفاذ أوامر سائر الهيئات

وتتلخص حياة الفرد فى أنه يبقى مع أبويه نحو ست سنوات ، ثم
يذهب الى الجامعة ولا يبرحها حتى الأربعين تقريباً . وهو فى تلك المدة

يرى أبويه ويعايشهما ، ثم يخرج ، فيشتغل فى إحدى الصناعات
اليهودية وينتمى الى نقابتها . وعندئذ يصير فرداً ذا رأى فى مصير
الامة ، لأنه ينتخب عن سبيلها النواب فى الهيئة التشريعية والقضاة
وأحياناً الصحافيين . ونقابته عبارة عن شركة تعاون أيضاً

فاذا دارت السنة عمل حساب الشركة . ما باعت من حاصلات
الدسكرة الزراعية الصناعية وما اشترته ، ثم توزع الأرباح على الأفراد
كل بنسبة عمله . والجزاء يستوى تقريباً بين جميع الأعضاء ، لأن المال
انحطت قيمته عند أهل " خيمى " . ولكن هناك أفراد لهم نزعات
خاصة ، يهرون مثلاً امتلاك بيت صغير يزينونه بما شاموا من التحف ،
فهؤلاء يشتغلون أكثر من غيرهم لكي يتوافر لديهم من المال ما يقتنون
به ما يشتهون من هذه التحف . ونقابة الدسكرة لا تقانع فى ذلك بل
تشجع عليه ، لأن مال هذه الممتلكات يؤول إليها بعد وفاة أصحابها إذ
أن مبدأ الإرث كان قد ألغى منذ زمان بعيد . ومعظم ما ينفق الخيمى
ماله عليه هو الطعام والاثومبيل والطيارة (ولكل منهما عداد) وهما
يسيران باللاسلكى) . أما المسكن فيعطى لكل فرد بالمجان ، وكذلك
الماء والنور والحرارة . وللنقابة مخازن يباع فيها الطعام واللباس بأخص
الأثمان

وأهل " خيمى " لا يبالون بكثرة النسل ، بل بجودته . فقد كانت
مصر فى سنة ١٩٢٥ نحو ١٥ مليوناً ، أما فى سنة ٢١٠٥ فانهم

نزلوا الى نحو ١٠ ملايين فقط . ولكن ليس فيهم واحد يجهل الفلسفة
أو مقداراً كبيراً من العلوم الاخرى . وقبلما يموت أحد منهم دون أن
يكون قد ساهى الى القطب وعاد منه ، وذلك لأنهم وجدوا أن العبرة
بالاشخاص كيف هم وليس كم هم

* * *

كان ابن عربى الأندلسى يقول : " لا ينبغي للعبد (يعنى
للإنسان) أن يستعمل همه فى الحضور فى مناماته ، بحيث يكون
حاكماً على خياله ، يصرفه بعقله نوماً كما كان يحكم عليه يقظة ... "
وبعبارة اخرى .. إن ما نشتهيهِ فى اليقظة نراه فى النوم . فلا
تهزأ ، بعد ذلك ، بالأحلام

فهرست

صفحة	
٥	مقدمة
١١	جمهوریة افلاطون
٢٥	حلم توماس مور
٣٥	أندريا وحلمه
٤١	أضغاث أحلام
٤٧	عصر الصناعة وأحلامه
٥٩	من أحلام الاشتراكية
٦٥	سنة ٢٠٠٠
٧٣	ثلاثة من الانجليز
٨٥	الحقيقة بنت الوهم
٩١	تطور الأحلام
٩٧	نقد ومراجعة
١٠٥	خيمي :مقدمة لطوى مصرية

مؤلفات سلامة موسى

حياتنا بعد الخمسين	مقدمة السبرمان
حرية العقل في مصر	نشوء فكرة الله
البلاغة العصرية واللغة العربية	الاشتراكية
التشقيف الذاتي	اشهر الخطب
عقلي وعقلك	الحب في التاريخ
تربية سلامة موسى	مختارات سلامة موسى
فن الحب والحياة	أحلام الفلاسفة
طريق المجد	حرية الفكر
محاولات	اسرار النفس
هؤلاء علموني	تاريخ الفنون
كتاب الشررات	اليوم والغد
الادب للشعب	نظرة التطور
دراسات سيكلوجية	المدينة الخاطئة
المرأة ليست لعبة الرجل	في الحياة والادب
بونارد شو	ضبط التناسل
أحاديث الى الشباب	جيونا وجيوب الاجانب
مشاعل الطريق للشباب	غاندى والحركة الهندية
مقالات ممنوعة	السيكلوجية
الانسان قمة التطور	ما هي النهضة
افتحوا لها الباب	مصر أصل الحضارة
الصحافة حرفة ورسالة	الدنيا بعد ٣٠ عاما
زوجي تزوج	الادب الانجليزي الحديث
معجم الأفكار	الشخصية الناجعة



لخص سلامة موسى على صفحات هذا الكتاب أشهر الأحلام التي رسمها الفلاسفة القدماء والمحدثين وتخيلوها عن رؤية وتدبير ، يرجون بها صلاح مجتمعهم ومستقبل الإنسانية. فهو ينتقل من مدينة أفلاطون الفاضلة ، إلى أحلام مور وأندريا ويسكون وكامبانيلا. ثم يدرس ما طرأ على تلك الأحلام بدخول الثورة الصناعية وظهور المذهب الاشتراكي. ويختم هذا كله بعلمه الخاص: «خيمني» أو مصر سنة ١٠٥ هـ.

**المستقبل بالفجالة والإسكندرية
و مكتبة المعارف ببيروت**

To: www.al-mostafa.com